

حوار

رئيس التحرير: توفيق صايغ

توفيق صايغ	٥
جبران وماري هاسكل : قصة علاقة	٤٩
رسوم غير منشورة	٥٣
قصيدة (شعر)	٥٤
بختس (قصة)	٧٤
تيارات الفكر الاقتصادي في العالم العربي	٩٦
حرية الكاتب في مواجهة العواصف	١٠٩
سيرة ناقصة (شعر)	١١١
قابيل يخنق القمر (قصة)	١١٦
الغربة بين النقد والاثار	١٢٣
يتحدث عن فنه الروائي (مقابلة)	١٤٠
اسماعيل فتاح	١٤١
رسوم	١٤٩
بعيدا عن لعبة الكراسي الموسيقية	١٥٣
« الاقتصاد الاسرائيلي »	١٥٥
قصيدتان طويلتان : البياتي وعبد الصبور	١٥٩
مرايا مغبشة : العرب في الرواية الانكليزية	١٦٤
ثلاث مسرحيات	

صورة الغلاف : « موضوع ملون » ، لوحة للفنان العراقي اسماعيل فتاح

في هذا العدد

مقال «جبران وماري هاسكل : قصة علاقة» مبني على اوراق يزاح عنها الستار هنا لأول مرة في اية لغة ، وتضم ٣٢٥ رسالة من جبران الى ماري هاسكل وزهاء ٣٠٠ رسالة منها اليه ، وعددا وافرا من مجلدات اليوميات والمذكرات التي احتفظت بها ماري عن علاقتها بجبران طوال ثلاث وعشرين سنة حتى وفاته ، ويبلغ مجموع عدد صفحاتها معا ٧٠٠٠ صفحة. وسيظهر مقال آخر مبني عليها في العدد القادم. توفيق صايغ ، صاحب «ثلاثون قصيدة» و «القصيدة ك» و «معلقة توفيق صايغ» ، هو ايضا مدير هذه المجلة ورئيس تحريرها .

الدكتور راشد البراوي في طليعة المفكرين الاقتصاديين في الجمهورية العربية المتحدة . من مؤلفاته «دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي» و «حرب البترول في الشرق الاوسط» و «الفلسفة الاقتصادية للشورة» و «النظام الاشتراكي من الناحيتين النظرية والعملية» . محيي الدين محمد ظهر آخر مرة في «حوار» ٢٠ ، وقد كتب مقاله الحالي بحثا مستقلا قائما بذاته ، لكنه يمكن في الوقت نفسه ان يقرأ كتتمة لمقاله السابقين في العددين ١٢/١١ و ٢٠ .

نشرت «حوار» في عددها ١٧ طائفة من قصائد انسي الحاج ، وهي تنشر له الآن مقالا نقديا — والشعر والنقد هما الحقلان اللذان برز فيهما المؤلف ، بالاضافة الى ترجماته المسرحية المتعددة ، والى توليه تحرير «ملحق النهار» الاسبوعي في بيروت . يتابع احمد رشدي حسين كتابة «رسائله» ، التي تشكل مجموعها سجلا دقيقا امينا مطالعا لاحداث القاهرة الثقافية .

المقابلة مع همنغوي حلقة جديدة في سلسلة المقابلات التي تنشرها «حوار» بانتظام مع ابرز ادباء ومفكري وفناني العالم — وقد تضمنت مقابلات مع ت.س. اليوت ولورنس ضريل وهنري ميلر والبرتو مورافيا وجان كوكتو وبيكاسو وازرا باوند وسيمون ديه بوفوار وافتوشنكو ، ومع نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وجورج شحاده واوجين يونسكو ، ومع يوسف ادريس (بنسبة فوزه «جائزة حوار»). اجري هذه المقابلة في ١٩٥٨ جورج بليمبتون رئيس تحرير مجلة «ذي باريس ريفيو» التي ظهرت فيها هذه المقابلة اولا والتي ننشرها هنا بالاتفاق معها .

شاعرا العدد : يوسف غصوب، الشاعر اللبناني، صاحب «القفص المهجور والعوسجة المتهبة» و«قارورة الطيب» و «الابواب المغلقة» (انظر نقدا لهذا الاخير منها في «حوار» ١٧) ، وهو من الشعراء القلائل الذين يرضي شعرهم قراء الشعر ذوي الميول المختلفة. سر كون بولص شاعر وقصاص عراقي شاب ، لم تظهر له مجموعات شعرية او قصصية حتى الآن .

في اليوم ذاته الذي صدر فيه العدد ٢١ من «حوار» وصلت المجلة قصة «بختنس» ، غير المنشورة في اية لغة ، بالنص الروسي الاصيل ، للروائي والقصاص اندريه سنيافسكي الذي يكتب باسم مستعار هو ابرام تيرتز ، وهو احد الكاتبين اللذين تم سجنهما مؤخرا في روسيا واثار الحكم عليها سخط الاوساط الثقافية في مختلف انحاء العالم. وقد قامت بترجمة القصة عن اصلها الروسي آزا حديديان ، التي ترجمت قصيدة برودسكي في «حوار» ١٥ ، واشرف على النص العربي فالح الجوهري. (جميع الحقوق محفوظة للسيد ج. جييدرويتش، مجلة «كتورا»، باريس).

القصة الاخرى في هذا العدد هي للقصاص المصري الشاب عبدالعال المحامصي، الذي ستظهر له عما قريب مجموعة قصصية بعنوان «وسادة فوق القمر» عن الدار المصرية للتأليف والترجمة، والذي يعد حاليا كتابا بعنوان «مذكرات اديب من الاقاليم». اسماعيل فتاح فنان عراقي، درس الرسم والنحت في بغداد ثم صرف خمس سنوات في روما مبعوثا من الحكومة العراقية. وهو الآن استاذ في معهد الفنون الجميلة في بغداد .

سبق «لحوار» ان نشرت اكثر من مرة قطعاً نقدية بقلم برهان الدجاني، المفكر الاقتصادي ورئيس الاتحاد العام لغرف التجارة والصناعة والزراعة للبلاد العربية. روزمري صايغ مراسلة مجلة «الايكونوميست» اللندنية الاسبوعية في الشرق الاوسط ، وكانت رئيسة تحرير مجلة «مدل ايست فورم» التي تصدر عن جمعية متخرجي الجامعة الامريكية في بيروت.

خيرى شلبي احد كتاب المسرح الجدد في القاهرة ، ومن نقاده الجادين . اعد رواية توفيق الحكيم «عودة الروح» للمسرح، بالاشتراك مع آخر ، وقد انتهى مؤخرا من كتابة مسرحية جديدة . مصطفى ع. شبراوي ناقد ادبي شاب من القاهرة ، معني بالشعر المعاصر بالدرجة الاولى . وضاح فارس فنان وناقد عراقي ، ظهرت تعليقاته النقدية على اكثر من فنان في الاعداد السابقة من «حوار» . لم ننشر باب «آفاق الحرية» في هذا العدد ، واستعضنا عنه بنشر قصة الكاتب السجين ابرام تيرتز. وستعود «آفاق الحرية» للظهور في العدد القادم.

جبران وماري هاسكل

قصة علاقة

توفيق صايع

لا اعترف ، منذ البداية ، بأبي في بحثي هذا عن جبران خليل جبران تنقضي مؤهلتان مهمتان : اولهما اني بطبيعتي لست باحثا ، وقد تجنبت دوما الابحاث والدراسات وعيا مني لامتناعها عليّ وادراكا مني اني ان نجحت فيها بعض النجاح فاني انما ارطن بلغة غريبة . وثانيتهما اني لست جبرانيا ، بمعنى اني لم ادرس نتاج جبران الدرس النقدي الصحيح ولم اعد الى قراءته من جديد بعد ان كنت قد قرأته قبل العشرين ، اي في الوقت الذي يؤخذ المرء فيه بجبران ، وبمعنى اني لست من المولعين بالنتاج الجبراني ، لا بالناحية الشعرية فيه ولا الادبية ولا الفكرية ولا الفنية ، واري ان الاطلاع عليه ، وربما التمتع به ، في طور مبكر من اطوار حياة المرء عندنا هو عارض لا بد ان يصاب به المرء ويضحى بعده بمنجاة من تكرره .

لاجل هذا وهذا اجدني مضطرا للاعتراف بأبي لم اكن لاكتب هذه الصفحات لو ان كتابتها كانت وقفا على متعة شخصية . لكنني منذ العدد الاول لهذه المجلة وانا اتطلع الى نشر « ادب شخصي » فيها : ذلك انه ، من الالوان الادبية المختلفة المعروفة لدينا ، لا ينقصنا لون اكثر مما ينقصنا الادب الشخصي ، سواء اتخذ شكل مذكرات او يوميات او رسائل او اعترافات او محاورات . لاجل هذا عمدت ، منذ عدد « حوار » الاول ، الى نشر مقابلة ادبية في كل عدد ، مع اديب عربي او اجني ؛ ولاجل هذا نشرت حزمة اليوميات التي جمعها الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا من اوراق الفنان العراقي جواد سليم ؛ ولاجل هذا ستظهر من حين لحين في الاعداد القادمة منتخبات من « دفاتر » بعض ادبائنا ؛ - ولاجل هذا هزني خبر مقتضب ورد قبل اشهر في احدي صحف الادب الامريكية الاسبوعية مفاده ان « عددا من الرسائل المتبادلة بين جبران وسيدة امريكية » موجودة الآن لدى « مكتبة جامعة من الجامعات في امريكا » .

ادركت ان في هذا الخبر تكمن بذرة مقال ، اكن محاولتي معرفة هوية السيدة الامريكية ، وعلاقتها بجبران ، وعدد الرسائل المتبادلة ، وتاريخها ، وطبيعتها ، واسم الجامعة التي اودعت فيها الرسائل ، باءت بالفشل . وعزيت ذاتي ، ببراعة وقائية لا غنى عنها لكل رئيس تحرير يني نفسه بمادة دسمة لمجلته ويرأها تقلت من بين اصابعه ، بان الرسائل هذه قد تكون روتينية عادية ، وان عددها قد يكون قليلا ، وان المرأة قد تكون واحدة من الكثيرات اللواتي اكد لنا مؤرخو حياة جبران انهن كن يحومن حواليه طوال سنوات النصف الثاني من حياته ولا يميزها عن اترابها شي .

وفي زيارة من زياراتي للقاهرة في الحريف الماضي التقيت الدكتور منح خوري ، الذي كان يقضي عاما كاستاذ زائر في الجامعة الامريكية فيها . وعضوا عن ان نتحدث عن شجون كثيرة كان يودنا ان نتحدث عنها بعد فراق سنين ، الفيتنا نتحدث عن هذه الرسائل ، التي كان قد خيل اليّ اني صرفتها عن ذهني الى غير رجعة . ذكر لي محدثي ان هذه الرسائل في مكتبة جامعة نورث كارولينا . واذاف انه قد حدث بشأنها اكثر من موجه ادبي في لبنان ، مؤكدا لهم ان المكان الذي لا بد ان تنشر هذه الرسائل فيه انما هو لبنان ، الذي منه خرج جبران واليه عاد ولو بعد وفاته . كان محدثني بهذا حديث الغيور على نتاج ابناء بلده ، وكانت قد بدأت ترسم برأسي خطة الحصول على المواد والاستفادة منها : وكان امم ما خرجت به من معلومات ، امم حتى من اسم الجامعة المودعة فيها الرسائل ، هوية السيدة الامريكية . كانت ماري هاسكل .

وماري هاسكل ، كما يعرف كل من اطلع على حياة جبران ، هي المرأة التي كان لها شأن في حياته لم يكن لسواها - على الاقل من حيث طول الزمن الذي عرفته فيه والعون الذي اسدته له. فهي التي عرفت منذ عامه الحادي والعشرين وظلت صديقته حتى وفاته ، وهي التي امدته بالمال ليذهب لباريس وليصرف الفترة التي صرفها فيها يدرس الفن ويكون مستقبل حياته الفني والادبي والفكري ، وهي التي طلب اليها الزواج (ولم تستجب الى طلبه) ، وهي التي اوصى لها بما في محترفه من صور وكتب وقطع فنية وآثار . ان رسائل تتبادلها وجبران لا بد ان تكون على جانب من الاهمية .

لكن الدكتور خوري لم يعرف عدد هذه الرسائل ولا تاريخها ولا نوعيتها. فكتبت الى القيم على المكتبة ، وحمل جوابه ، هو والمراسلات المعيدة التي دارت بيننا فيما بعد ، المفاجأة الثانية : ان الرسائل اكثر عدداً مما خيل ابداً اليّ ، فهي تضم ٣٢٥ رسالة من جبران الى ماري هاسكل وزهاء ٣٠٠ رسالة من ماري هاسكل الى جبران وجدتها ماري ما بين اوراقه في محترفه بعد وفاته ؛ وتتراوح في تاريخها ما بين ١٩٠٨ و ١٩٣١ (والواقع ان آخر رسالة في المجموعة كانت من ماري له ، كتبها له قبل وفاته باربعة ايام فقط) . ان كتاب « رسائل جبران » (الذي حرره الدكتور جميل جبر ، بيروت ١٩٥١) لا يضم سوى ٤٨ رسالة ، تحتل معا ٩٢ صفحة ، ويقول الدكتور خليل حاوي (« جبران خليل جبران في اطاره التاريخي وشخصيته وآثاره » ، بيروت ١٩٦٣) « انه يحوي الجانب الاكبر من رسائل جبران » . لكن الرسائل هذه المتبادلة بينه وبين ماري هاسكل هي حوالي ٦٢٥ رسالة ، تحتل معا ١٧٦٠ صفحة . كما ان رسائله في « رسائل جبران » موجهة الى عشرة اشخاص مختلفين ، كلهم رجال ، باستثناء مي زيادة التي كان نصيبها ثماني رسائل (ولو ان كتاب الدكتور جبر « مي وجبران » ، بيروت ١٩٥٠ ، يبدو انه يعتمد على اكثر من هذا العدد المحدود من الرسائل) .

لكن مفاجأة اخرى كانت تنتظرنني . فقد ذكر لي القيم على المكتبة ان هذه الرسائل انما هي جزء من الاوراق التي في حيازته ، لا كلها ؛ وان ماري هاسكل اودعت عام ١٩٥٣ في المكتبة ، الى جانب هذه الرسائل ، كميات هائلة من الاوراق والمخطوطات والوثائق المتعلقة بحياتها ، وكثير منها بالطبع يتعلق بجبران . ولعل اهم ما في هذه الاوراق هو مذكرات ماري ويومياتها - وجانب كبير من هذه المذكرات واليوميات (المجلدات ٤١ - ٦٨) مكرس لجبران ولعلاقاتها معا ، ويضم سردا مفصلا جدا لاجتماعاتها وما دار فيها ، ولسائر اقواله وآرائه ونشاطاته ومشاريعه . هذا بالاضافة الى عدد وافر من رسوم جبران وتخطيطاته الفنية ، والى بعض مخطوطاته ، وصور فوتوغرافية ، وقصاصات ، واوراق مختلفة النوعية ، كبرقية مريانا للماري عن وفاة أخيها جبران ، وصورة فوتوغرافية لميشلين - تملأ ٧٩ مجلدا ، وتحوي مراسلات مع مريانا ومع برباره يونغ مؤلفة « هذا الرجل من لبنان » ومع شارلوت تار التي كانت صديقة للماري ولجبران ويرد ذكرها مرات عديدة في الرسائل واليوميات على السواء .

مادة ضخمة ، وجدت عندما وصلني ما انتقيته منها (الرسائل جميعها وكافة المجلدات المختصة) اني اوقعت نفسي في ورطة اشق من التي انتظرتها : فالجموع العام لعدد الصفحات التي انتقيتها (وكثير منها باهت او بخط رديء او يصعب فك طلاسه ، وقراءة الميكروفيلمات في احسن الحالات عملية مرهقة مضنية) والتي عليّ ان اقرأها ، وادرسها ، واقارن بينها ، واقدمها ، لم يكن في الواقع ينقص الا صفحات معدودات عن السبعة آلاف صفحة .

وتساءلت ، كما قد يتساءل القارئ ، او يحتاج الامر كل هذا العناء ؟ لكن ثلاثة اشياء كانت ببالي جعلت الجواب نعماً مشددة : اولها ما ذكرته من شغفي بالادب الشخصي واهتمامي بان تنشر « حوار » نماذج متعددة منه ، وهذه الرسائل والمذكرات والاوراق تمكنني وتمكن « حوار » من ذلك بابلغ شكل وارفاه . وثانيها ان جبران ، مهما كان الرأي النقدي في نتاجه ، شخصية وحضور وتاريخ لا يمكن التفاوض عنه ، وحياته ، كما يقول الدكتور حاوي في كتابه عنه ، هي التي تستدعي التعليق اكثر مما يستدعي نتاجه ، وهذه الاوراق توسعها ان تبدي مثل هذا التعليق ، خاصة وان وترا رئيسيا متكررا فيها هو جبران والحب ، و« حب المرأة » ، كما

يقول الأستاذ أمين خالد (في « محاولات في درس جبران » ، بيروت ١٩٤٤) ، « هو الذي اوحى الى جبران آليات فنّه واهمه أسلوبه البديع » . وثالثها ان في هذه الاوراق معلومات على قسط كبير من الامة للبارسي جبران ونتاجه ، بالإضافة لما تقوله لنا عن حياته ، فلعل في تحدّثي هنا عنها ، واخذ جوانب قليلة مصنّعة منها دون جوانب عديدة اخرى ، تشجيعا على الاهتمام بنشر الاوراق بكاملها ليتسنى للباحثين والدارسين الاستفادة منها .

هذا الى ان هذه الاوراق تختلف عن اية وثائق كانت عندنا فيما مضى عن جبران ، وتمتاز عنها بالكثير . يشكو الدكتور حاوي من ندرة الوثائق التي يمكن ان تساعد الدارس على فصل الاسطورة عن الواقع في جبران ، ومن ان جبران لم يخلف لنا يوميات او مذكرات افشى فيها مكنونات صدره او تعرض فيها للاحداث البارزة او حتى الاعتيادية في حياته ، ومن ان رسائله تسكاد تكون دوما ادبية الاسلوب وخالية من الاشارات الى الاحداث الواقعية ، ومن ان رسائله الغرامية تحلو هي ايضا من الاعترافات والبوح ، ومن انه كان كتوما لا يفصح عن حياته الداخلية الحبية حتى لا يقرب المقربين اليه . ويذكر ان الأستاذ ميخائيل نعيمة اقر في مقابلة اجراها معه الدكتور جبر وفي مقابلة اخرى اجراها معه هو ان جبران لم يحدّثه قط عن قضايا حبه ، ويذكر الأستاذ نعيمة ذاته (« جبران خليل جبران : حياته ، موته ، ادبه ، فنّه » ، طبعة ٣ ، بيروت ١٩٥١) انه فاته من اسرار جبران الكثير ، وان ما كتبه في سيرته لجبران عن حياته الحبية ، سواء بخصوص ماري او بخصوص ميشلين ، انما استقى مصدره من ماري - لكن الأستاذ نعيمة لم يلتق ماري الا بعد وفاة جبران ، اي بعد علاقة حب جبران وميشلين ، ان صحت ، بسبع وعشرين سنة وبعد اوج علاقة حب جبران وماري بسبع عشرة سنة ، ولم يجتمع بها الا ساعات معدودات . فاذا ما قارنا هذا كله بالرسائل واليوميات التي بين يدينا بان لنا تميز هذه واهميتها . فالوثائق الآن وافرة ، وذكر الاحداث الواقعية والتعليق عليها مطرد ، والاعترافات دائمة ، وهي كلها كتبت بوحى الساعة وبدون اي تبريج او تنقيح ، طوال ثلاثة وعشرين عاما ، وان كانت اوفر واطول في العقد الثاني من القرن منها في العقد الثالث منه . وفي معظم السير التي وضعت عن جبران ، في كتاب الأستاذ نعيمة وفي كتاب الدكتور جبر (« جبران : سيرته ، ادبه ، فلسفته ، ورسمه » ، بيروت ١٩٥٨ ؟) وفي كتاب السيدة برباره يونغ (« هذا الرجل من لبنان » ، نيويورك ١٩٤٦) ، نجد ان لونهين مختلفين من الادب يمتزجان سوية بحيث يتعذر الفصل بينهما احيانا ، هما السيرة والرواية . فكثير من الاقوال التي وضعت على لسان جبران انما تصور المؤلفون تصورا ان جبران قالها ، وكثير من الاحداث التي ذكرها انما هي احداث روائية لا واقعية . هذا ما يشكو منه كتاب الأستاذ نعيمة بصورة خاصة ، وما اشار اليه اكثر من ناقد فيما مضى . هنا ايضا يتبين لنا تميز هذه الاوراق التي بين يدينا ، التي لا نعرف فيها « عن » جبران ولكننا نعرف جبران نفسه ، وكلما فيها اما ثمرة قلبه هو بخط يده ، او هو نقل ، حرفي مباشر امين ، لما قاله .

ومع ان هذه الاوراق شاملة وافية ، تتعرض لاشخاص عديدين ، الا ان البطلين الرئيسيين فيها هما ، كما هو متوقع ، جبران وماري هاسكل . ويلاحظ ان اهمة ماري وعلاقتها بجبران لم تعط ، في الكتب المختلفة عنه ، المقام الذي تستحقه - بل ان السيدة برباره يونغ لا تذكر ماري الا في لحق الكتاب (ولو انه كان ينظر منها ان تسبب في ذكر هذه العلاقة اكثر من سواها لانها عرفت عنها الكثير) ، والأستاذ جوزيف شيبان ، صاحب احداث كتاب عن جبران (« مرايا النفس » ، نيويورك ١٩٦٥ ، الذي وصل بيروت وانا مناصب على كتابة هذا المقال) يبخل عليها باكثر من نصف صفحة صغيرة ويبدو وكأنه يشكك حتى في مساعدتها لجبران ، ماليا وادبيا . من اجل هذا تحيي هذه الاوراق التي بين يدينا وتعديل كفة الميزان الى مستواه العادل الصحيح .

بقي ان اقول ان هذه الاوراق ، اذ تسرد احداثا واقعية واقولا واقعية ، تسمعنا صوت جبران الصحيح وتشكل افضل صورة ذاتية له يمكن لنا ان نحصل عليها . اننا نرى فيها عقل جبران قيد العمل : نراه يقفز من فكرة لفكرة ومن موضوع لموضوع ؛ ويتحدث عن فنّه وعن ادبه هو وعن الفنانين والادباء والمفكرين

الذين كان يقرأهم وعن رأيه في كل منهم ؛ نراه يرسم في هوامش رسائله واحيانا في متنها ، وعلى صفحات مفكرات ماري ، رسوما مصغرة للوحات التي كان يعمل عليها آنئذ ، ويفسر لها ما كان يفعله وينوي ان يفعله ؛ نراه « يجرب » باستمرار على ماري الآراء المختلفة التي سينثرها في مؤلفاته فيما بعد ، قبل ان يكتبها وقبل ان يعتنقها تمام الاعتناق . اننا نجد ماري هنا « التلميذة » الحلقة ، تلتقط الحبوب والبذور دوما من فتاته - لكنها لا تكتفي بذلك ؛ بل هي تضع البذور والحبوب لكي ينمىها هو فتلقتظها هي ؛ انها تقتبس كل ما يقوله ، وعندما لا يقول تروح تلاحقه بالاسئلة الى ان يقول كل شيء عن هذا الموضوع او ذاك ، فتسجل اقواله بامانة وبإيمان. وهي لا تقتصر في وصفها على آرائه وافكاره ، وعلى رسومه التي تذكر شرحه لها مرحلة مرحلة ، بل تصف كل ما يتعلق به ؛ تصف نوع قراءاته ولون قراءاته ، وتصوره كيف يرسم ، وكيف يتحرك ، وكيف يبتسم ، وينكت ، ويحمل عصاه ، ويأكل ، تصف تهذيبه وعاداته ، وساعات عمله ، وطريقة عمله ، والصعوبات والهبوطات في صحته، وملابسه ، وكمية اكله ونوع اكله ، وقلة نومه ، وكلامه وصوته ونبرته ، وطريقة جلوسه وهو يكتب، وعجزه عن الاسترخاء والراحة، وهي تقرأ شخصيته وتطوره من خطه ومن امائر وجهه (وتقارن بين تحليلها الحالي وتحليلاتها الماضية وتبحث في سبب اي تبدل تلاحظه) . ان هذه الارواق تجيبنا على فيض من الاسئلة ؛ وربما كانت بعض الاجوبة معروفة ، او بالاحرى مشتبه بها ، من قبل ، لكنها تذكرها هنا وتمطي الادلة عليها - كما انها تبوح باشياء كثيرة ، جديدة كل الجدة .

لا اريد نساء في حياتي

في « رسائل جبران » رسالة منه الى مي زيادة ، غير مؤرخة ، يقول فيها : « انا مديون بكل ما هو (انا) الى المرأة منذ كنت طفلا حتى الساعة . والمرأة تفتح النوافذ في بصري والابواب في روحي » .

علاقة جبران بالمرأة هي موضوع رئيسي لدى جميع الذين كتبوا عنه - وهي ايضا موضوع رئيسي في الاوراق التي ندرسها هنا . لكن بيننا نجد مؤلفا (امين خالد) يرى ان المرأة وحبها هما عماد الادب الجبراني والفلسفة الجبرانية برمتها ، نجد مؤلفا آخر (يوسف الحويك « ذكرياتي مع جبران » ، تحرير السيدة ادفيك جريديني شيبوب ، بيروت ١٩٥٧) يصوره طوال اقامته في باريس ، وهو في عنفوان شبابه ، مترنا منسجبا مترويا في علاقته بالمرأة ، - بل ان الدكتور جبر يروي ان احدى الموديلات التي كان يستأجرها الحويك وجبران معا كانت « تشور غالبا على برودة جبران العاطفية نحوها فتردد في اذن الحويك : ان صاحبك لعاجز لا خير فيه » . فما الذي تقوله هذه الاوراق عن الموضوع ؟ في احدى رسائل هذه الفترة (١٩٠٩) ، يقول للماري انه يهرب هربا من كافة الاشياء التي يجيد الرجال والنساء لذة فيها ، وانه متعب من كل الاكاذيب الخارقة التي يسميها الناس لذات . وفي ١٩١٢ تذكر له ماري ما وصل سمعها من اشاعات عن علاقته بالنساء في باريس ثم في نيويورك ، فيقول محتجا : « اتدركين المقدار الذي حققته فعلا من العمل في السنوات العشر الاخيرة ؟ لقد كتبت ١٥ مجلدا من حجم « الاجنحة المتكسرة » ... بالاضافة الى اللوحات والرسوم . ان كل من يعرف هذا يعرف ان تحقيق ذلك لم يترك لي

متسعا من الوقت للعلاقات العاطفية . لقد كنت مشغولا جدا . وتعلق ماري : « يضاف الى هذا انه خجول فيما يتعلق بالامور الجسدية . وكل من يعرفه ويهتم به ... يستطيع ان يرى ان خليل (اي جبران) لا يوجه اهتمامه نحو الجنس - لكنه يشغله بامور اعظم ... وكما يقول هو ، انه يقوِّب طاقته الجنسية الى نتاج فني . ان ما يبقيه « عفيفا » ليس « الفضيلة » وانما هو المزاج » .

ويقول لها في ١٩١٣ ان اصدقاءه يخطئون فيما يظنون به ، فهم يقولون ان له علاقات عاطفية متعددة « في حين اني اعيش بدون وصال جنسي » . وكان حديث مماثل قد دار بينها في ١٩١٢ ، قال لها فيه ان كثيرا من اصدقائه ، حتى اقربهم اليه ، يعتقدون ان بينه وبين بعض النساء علاقات ، في حين انه ليست هناك مثل هذه العلاقات ولم يحدث مثلها في سنواته الماضية الا مع عدد قليل جدا من النساء - تقول ماري : « وعرض ان يخبرني كم مرة حصلت مثل هذه العلاقات ، لكنني رفضت » . وتضيف انه اخبرها ان العدد كان ضيلا جدا بحيث انه يشعر على الدوام انه انما هناك ملائكة تقوم بحمايته .

وفي لقاء آخر في العام ذاته يقول لها انه ظل صبيا من الناحية الجسدية ، حتى وقت متأخر ، فهو لم يصل طور الرجولة النفسية الا قبل اربع سنوات او خمس . وانه كان خجولا ، يصارع خجله ، وانه توصل الى الجسدي عن طريق الروحي والعقلي .

بعد سنين كثيرة ، في ١٩٢٢ ، يعود الى ذكر براءته الجنسية وتفسير اسبابها : « عندما تقوم علاقة جنسية ، فان حرية ما تضيع - ذلك ان الطرف الآخر يصبح له شيء من الحق عليك . هذا سبب من الاسباب التي تجعلني بدون اية علاقة جنسية مع امرأة ما ، وتجعل من المحتمل اني لن اخوض مثل هذه العلاقة في المستقبل » . ويروي لها كم من المتاعب يجرها عليه موقفه هذا : « الآن ، عندما ارفض علاقة مثل هذه - ذلك لان النساء يتقربن مني جنسيا - فاني اشرح لهن السبب على الدوام . احاول ان اقول لهن : لا ، بلطف ورقة . اقول لهن اني مشغول كثيرا ، وغارق في عملي ، وغافل عن كل شيء آخر ، وان حياتي في الواقع هي في عملي . اما قبل فكننت اكتفي بان اقول لهن : لا ، انما كنتي وشأني ! »

في اللقاء الجنسي الذي لاحظت ماري اتصافه به ، يراه هو (١٩٢١) ، في نطاقه الاوسع ، البغزة التي تنمو منها الحضارة . ذلك ان الانسان عندما لم يكن يستطيع ان يعبر عن ذاته تعبيرا جنسيا حرا وكاملا ، اطلق قواه وابداعه في سبيل جديدة غير سبيل الولادة والانجاب ، وغطى الجنس بامور اخرى . لاجل هذا نرى جبران يقرب بين الجنس والخلق ، ويقول ان الجنس ، مهما اتخذ من اشكال ، شيء خلاق ، والرجل الخلاق هو دوما يحس بطاقة جنسية اقوى مما يحس بها سواه من الناس .

اكثر من مرة في هذه الاوراق نجده يتحدث عن احجامة عن العلاقات الجنسية والعاطفية ويشير الى حياته كحياة رهبنة. في ١٩١٤ يكتب لماري : « اني مستمتع بحياة الرهبنة التي احياها استمتعا كبيرا » . ويكتب لها ايضا انه كلما تقدمت به السن (لكنه كان قد تجاوز الثلاثين قبل سنة فقط) زاد فيه ميله الى الرهبنة وعزمه عليها . وتقول ماري انها عندما اكدت له ذات يوم في ذلك الحين ان حياة الرهبنة التي يتحدث عنها ليست مجرد شيء في المستقبل ، بل انها قد ابتدأت فعلا - ابتم .

احجام عن العلاقات الجنسية ، واحجام عن التعرض للجنس في احاديثه وقرائمه . فهو يذكر لها (١٩١٥) انه لا يتحدث عن الجنس مع احد ، حتى وان كان رجلا : « كل ما في الامر اني غير مهتم بالموضوع . بل اذا ما تحدث انسان طيب جدا ، بطريقة طيبة جدا ، وبشكل غير شخصي وعلمي ، عن الجنس ، فاني سرعان ما ابدل الموضوع . واعتقد اني قد قرأت عن الجنس اقل مما قد قرأ اي انسان آخر اعرفه » . ويكتب لها (١٩١٧) انه لم يتمتع قط بقراءة اي كتاب بموضوع الجنس ، وانه لم يتمكن قط من اتمام قراءة كتاب واحد حتى نهايته بهذا الموضوع . انما لماري وحدها كان يتحدث في هذه الامور ، وبتطوير وصراحة ، ويشي لها بكل مكنونات صدره واختلاجات جسده - لكنه لم يفعل الا بعد ان كانت قد انقضت سبع سنوات على بدء علاقتها معا .

وكان يمقت التحليل النفسي الذي كان اذ ذاك قد اخذ ينتشر بسرعة في امريكا . ونقرأ اكثر من مرة عن نفوره منه ، وعن رفضه ان يحلل ، وعن قسوته في مناقشاته للمحللين . مأخذه الرئيسي عليه هو مبالغته في تحديد اهمية العامل الجنسي في حياة الانسان (١٩١٦) . لكن نغمته على نشاطات الجنس غير الطبيعية كانت بالطبع اشد واعنف . يهديه فرانك هاريس ، المؤلف الانكليزي الذي يكتب بدون رادع ، نسخة من مؤلفه « حياة اوسكار وايلد واعترافاته » . ويكون رد فعل جبران (١٩١٦) واضحا مباشرا : « لم اكن احلم قط ان مثل حمام الاقدار هذا موجود - لم اكن اتصور وجوده - لم اكن اعرف ان وايلد يمثل هذا الانحطاط . ان هاريس وسخ - وسخ من اوله الى آخره » . لكن آراء المرء تتطور ، والجبن تنحل تقطيباته ويرتاح . بعد عام واحد نسمعه يروي لماري : « لقد شهدت اليوم مشهدا كان في العادة يبعث في النفور والاشمئزاز الفظيعين ، اما الآن فانه يبعث في الاستغراب وحسب ، ولا يستطيع ان افهمه . لكنني لا ادينه ، واكتفي بمراقبته » . ويصف لها المشهد ، ويتعلق بشابين منحرفين جنسيا ، ويسألها ان كانت تستطيع ان تشير عليه بكتاب ما عن الشذوذ الجنسي عند الرجال . ويكرر انه قبلا لم يكن يستطيع ان يقرأ كتبا عن الجنس ، « اما الآن فاريد ان اقف على كل شيء ، واريد ان افهم كل شيء » . وتعطيه كتب هيفلوك اليس ، لكنها تكتشف فيما بعد انه ابتدأ

بقراءتها ثم هجرها . ويقول لها انه لسبب من الاسباب لا يجب ان يقرأها - انه يقرأ فيها قليلا ، ثم لا يريد ان يعرف اكثر .

ويقول (١٩١١) انه ايسر عليه مصادقة الرجال من مصادقة النساء ، لكنه (١٩١٤) يثق بالمرأة اكثر مما يثق بالرجل . ويتذمر (١٩٢١) من نيويورك ، ومن ان الحياة فيها لا تطاق : فعليه ان يقاتل الرجال ، « لان جميع الرجال نقاد » ، وعليه ان يقاتل النساء ، « لاني لا اريد نساء في حياتي » .

ويبدو انه لم يكن يبالغ كثيرا : فالنساء ملتفات من حواليه ولا بد له من ان يذودهن عنه ذيادة . قال لماري في ١٩١٣ ، وكانا يتحدثان عن موته (وهو موضوع غالبا ما كان يدور عليه الحديث ، منذ كان في اوج شبابه) : « اجل - وعندئذ ستأتي النساء ، وكل منهن ستقول لنفسها : كان حبيبي - مع انه لم يكن » . ولا تستغرب ماري ان تحبه النساء ، لانها ترى (١٩١٣) انه يمثل لكل امرأة انطلاقها . وتقول له (١٩١٥) ان توجيه النساء لرغباتهن صوبه هو شيء طبيعي ، وانها لا تحتقر النساء لاجله ، - وانه يجب الا يقلق هو « اذا كانت مبيضات امرأة ما تزعجها ، واسمح لي ان اتكلم بصراحة . قال خليل : يسرني ان اسمعك تقولين ذلك » .

نساء كثيرات من حوله ، لكنه يؤكد لها (١٩١٤) انه ليست له من صديقة سواها هي . واوراق الرسائل والمذكرات ، في جانب كبير منها ، تدليل حسي على صحة ذلك .

ميشلين المسكينة العزيزة

ماري هاسكل وميشلين هما المرأتان اللتان تحدث الباحثون عنهما ، منذ كتاب الاستاذ نعيمة ، اكثر مما تحدثوا عن سواهما فيما يتعلق باثرهما في حياة جبران . وقصة علاقة جبران بميشلين ، التي يسميها فليكس فارس (في « رسالة المنبر الى الشرق العربي » ، القاهرة ؟ ١٩٣٨) « بيت القصيد من حياة جبران الخصوصية » ، كما وصلتنا من كتاب الاستاذ نعيمة ، يمكن اختصارها كما يلي : كانت ميشلين شابة فرنسية تدرّس في مدرسة ماري هاسكل ، وتعرف اليها جبران بعد لقائه لماري بوقت قصير جدا ، وسرعان ما قامت بينهما رابطة حب قوية ، وصلت قبل طويل نهايتها المحتومة ، - لأول مرة بالنسبة لميشلين وان لم يكن بالنسبة لجبران . ولما حملت منه ، اقنعها جبران مرغمة بالاجهاض (وبينين للانكلوزنجواوي ان الاستاذ نعيمة عاد فحذف هذه المقاطع من الطبعة العربية الثالثة لكتابه ومن نصه الانكليزي) . ثم ينقلها الاستاذ نعيمة ، ويجاريه في ذلك الدكتور جبر ، الى باريس بعد ان يكون قد جاءها جبران بفضل معونة ماري المالية . فتفاجئه ذات عشية في غرفته ، وتطلب اليه ان يتزوجها . لكنه يقترح ان تسكنه بدون زواج ، فتخرج بلكية وتتوارى في الظلام - « ولم ترجع » ، يقول الاستاذ نعيمة . ويختم الدكتور جبر

سرده للقصة بقوله : « ولعلها توارت ليلذاك عن الحياة » .

وتشير قصة ميشلين وجبران هذه ، بشطريها البوسطني والباريسي ، نقمة فليكس فارس . فهو لا يستطيع ، او لا يريد ، ان يصدق ان جبران قد تصرف تجاهها في باريس كما تروي هذه انه تصرف ، وانه تركها تلجأ « الى ماخور ... لتدنسه بتدنيس ذاتها » . غير انه لا يكتفي بهذا التشكيك بما روي انه حدث في باريس ، بل يحاول ان يمسح الغبار عن تصرف جبران في بوسطن ايضا ويشكك في ان يكون جبران مسؤولا عن تعريف ميشلين الى الجنس ، ويشكك في ان ميشلين كانت عذراء الى ان عرفها جبران .

ويلاحظ الدكتور حاوي ان جبران لم يذكر ميشلين قط لاصدقائه ، وان ذكرها لا يرد مطلقا في اوراقه ؛ ويصل الاستاذ شيبان الى نظرية جديدة بشأنها : فيقول انه قام بجهد خاص ليتوصل الى حقيقة هذه الفتاة الجميلة ، وهل وجدت اطلاقا ! يقول : ولما كان الدليل على انه كانت هناك فعلا فتاة اسمها ميشلين هو لوحة صورها فيها جبران ، واهدائه لها احد كتبه ، فانه زار متحف جبران في بشري ، فوجد ان اللوحة غير موقعة ، ولا حظ انه ليست ثمة اية مراسلات بين جبران وبينها ؛ ووجد ايضا ان الكتاب المفروض ان يكون جبران قد اهداه اليها ، لا يحمل اسمها في الواقع . واذف ان يوسف الحويك ، في مذكراته عن حياته وجبران في باريس ، يذكر عددا من النساء اللواتي عرفهن جبران هناك ولا يشير قط الى فتاة اسمها ميشلين . ويخلص الاستاذ شيبان الى قوله : « لاجل هذا ، وحتى تتوفر لنا ادلة جديدة ، فاني سأتمسك بوجهة نظري من انه لم تكن ثمة فتاة اسمها ميشلين قط » . اما نظرية الاستاذ شيبان هذه فانها تنهدم من الاساس في الحال ، لاننا نجد ذكر ميشلين يتتالى في صفحات الرسائل والمذكرات (واحصاء سريع يشير الى ذكرها ٣٣ مرة فيها ، عدا المرات التي ذكرت فيها بمعزل عن جبران) .

بيد ان الاوراق لا تقول لنا شيئا عما دار فعلا من علاقة في ١٩٠٤ بين جبران وميشلين ، لان بداية الرسائل انما هي في ١٩٠٨ والمذكرات المسهبة في ١٩١٠ ، وان كانت تشير مرة من بعيد الى العلاقة الماضية (في يوميات ١٩١٤ تقول ماري انها تحدثت وجبران عن ميشلين اثر زيارتها له ، وان جبران قد اصبح يستسيغها اذ ذاك اكثر مما كان يفعل فيما مضى ، وقد صار يعترف بصبيانيتها يوم كان هو وميشلين على علاقة حميمة) .

واما حادث باريس ، فيبدو انه مختلق : فيميشلين لم تلحق بجبران اليها ، وانما كانت في الواقع في باريس يوم ذهب هو اليها ، والتقى فيها مرارا عديدة كان يذكرها للماري بانتظام في رسائله ، وبقي على الدوام على صلة طيبة معا . واما خروجها تنتحب في الظلام ، الى انتحار فعلي او الى انتحار رمزي ، فالحياة (هذه المرة على الاقل) لم تكن فيها عناصر الرواية ، وكانت اقل منها مفاجآت ومدهشات . فسئري ان ميشلين ، مها كان ما

حصل بينها في لقاء معين ما (اذا كان قد حصل مثل هذا اللقاء) ، لم تمت ، ولم تمت شيئا في ذاتها . وتابعت صلتها بجبران وبماري ، وتزوجت فيها بعد ، وانجبت ، وبدل ان يسدل على حياتها الستار في ١٩٠٨ او ١٩٠٩ او ١٩١٠ (سنوات اقامة جبران بباريس) عاشت بعد ذلك اعواما طويلة ، وماتت في امريكا حيث مات جبران ، في العام ذاته الذي مات فيه جبران ، بعده بستة اشهر .

في اول رسالة بين يدينا كتبها جبران لماري من باريس (١٣ / ٧ / ١٩٠٨) يذكر لها ان ميشلين هناك ايضا ، « ميشلين الحلوة التي هي ام صغيرة عزيزة وطفلة صغيرة عزيزة . انها في الواقع عون كبير » . ويقول انه قد استقر في غرفة صغيرة على مقربة من حيث تقطن ميشلين مع رفيقة لها ، وانها لسوء حظه ستترك باريس بعد اسابيع قليلة - ولكنها اذا كانت ستجد نفسها على المسرح ، كما اجد انا الآن ذاتي في باريس ، فلا بأس - وعليها الا تلبث هنا وعلي الا اطلب اليها ان تلبث . وقبل آخر الشهر يكتب لماري انها ستذهب لزيارة والديها . وفي اواخر ١٩٠٩ يكتب لماري : « وميشلين ، ميشلين المسكينة العزيزة . اتعرفين ، ايتها الحبيبة ماري ، اني لا اجد كلمة واحدة اقولها لها ؟ انها حلوة جدا وعزيزة جدا ، وصلاتي ان تجد سلاما وراحة في ظل رجل صادق طيب » . ولكنه في ربيع ١٩١٠ يكتب عنها قائلا : « وميشلين ، ميشلين المسكينة العزيزة : انها اشبه شيء بمرآة ، فكل امرئ يرى فيها صورته هو . ارجو الا يحمل لها اليهودي الشقاء ، بان يرى فيها العناصر الغريبة التي في شعبه . انا سعيد بانها عادت الى التدريس ، وانا سعيد ايضا بانها بعيدة عن مباحكات البشر التي لا آخر لها » . ويسافر (١٩١٠) الى لندن برفقة امين الريحاني ، وحين يعود في الصيف يجدها في مرض شديد ، بسبب حلقها ، ويصفها بانها في غاية النحول والشحوب . وبعد شهر تتعافى ، وتترك باريس للريف ، بعد ان قاست كثيرا ، وهي ما تزال تفكر بحياة المسرح (وهو لا يقر ذلك) . وفي الخريف تعود لباريس

ليتم قصة قصيرة ثم تتركها لتدرس من جديد.
في تشرين الاول (اكتوبر) الى امريكا ، ويحدث ماري عن زيارة قامت بها الى امريكا في ربيع ١٩١١ ، ويردف : « مسكينة ميشلين : ان آلهة الجحيم على الارض هائلون ، لا يستطيع ان تسد اذنيها بالشمع ! » . ثم يرد ذكرها في يوميات ماري (١٩١٦) بمناسبة حوار يدور بينها وبين جبران حول جلد الانسان وكيف يعبر عن شخصية الانسان من داخله ، ويضرب لها جبران مثلا ميشلين ، ويتحدث عن جلدها الخمي جدا والكهربائي . وتزوره مرة اخرى في خريف العام ، ويصفها بالاشراق و «الفرنسة» ، ويقول ، في جملة معبرة تستلفت النظر ، ان فيها شيئا وطيدا ، شيئا حقيقيا « لم اكن قد رأيتها قبل سنين عندما كنت شاعرا لحد كبير ورجلا لحد يسير » . ويصف سعادتها وحبورها الذي

اثر زيارة اخرى تقوم بها له في ربيع ١٩١٣ ، ويجري ذكرها بعد ذلك ذكرا عابرا اكثر من مرة ، الى ان نقرأ عن زواجها من شخص اسمه لامار هاردي في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ . ونجد آخر ذكر اكثر من عابر لها في اواخر ١٩١٦ ، عندما يسأل جبران ماري عنها ويستطرد « بانها ستكون دوما فريدة ، وستكون دوما حسنة ، وانها سعيدة الحظ اذ لقيت هاردي » . بعد ذلك يمحي اسمها ، الا من اشارات غير مهمة ، والا من مفكرات ماري الاخيرة حيث تتحدث عن لقاءات متعددة بينها وبين ميشلين ، الى ان نسمع عن وفاتها . فبين الاوراق رسالة مطولة ، بتاريخ ٢٠ / ١٠ / ١٩٣١ ، كتبها لامار هاردي زوج ميشلين لماري ينبئها فيها باسهاب عن وفاة ميشلين وعن ايامها الاخيرة وعن مشاريعها ومشاريعه لابنتها ميشلين .

لقد اعطيتني الحياة ، بمعنى حرفي

قبل ان ننظر في علاقة الحب والصدقة بين جبران وماري ، يحسن بنا ان ننظر في الدور الذي لعبته ماري في حياته بمساعدتها اياه ادبيا وماديا . اما ان علاقتها به كانت ايضا علاقة خلاقة ادبيا ، فهذا ما تقوله بوضوح الكتب المختلفة عنه ، وان كانت برباره يونغ تحفف ، لا مباشرة ، من اهمية هذه الناحية ؛ وهو ايضا ما تقوله الاوراق هذه التي ندرسها . في رسالة من اولى رسائله لماري من باريس (١٩٠٨) يكتب لها : « آمل ان يمحيء الوقت الذي سأتمكن فيه من القول : لقد اصبحت فنانا بفضل ماري هاسكل » . اذ ذلك كان هذا « الفضل » فضلا ماديا بالدرجة الاولى نتيجة تمكينها اياه من الذهاب الى باريس ودراسة الفن واجراء اختباره فيه . لكن هذه العبارة تكتسب مع الوقت معاني اخرى ، « فالفضل » يصبح فضلا خلاقا ، فضلا الهاميا نقديا مستغزا مشجعا مصححا هاديا . ويكتب لها في مناسبة اخرى من باريس انه ، في لوحة « الحريف » التي تقدم بها للعرض في الصالون ونالت القبول ، قد نقش في احد الاطراف حرفي اسمها « م . ه . » ضمن دائرة ، ويؤكد : « وسأكتب هذين الحرفين ضمن دائرة على كل لوحة سأرسمها ؛ ولعل اولئك الذين سيرغبون في النظر الى رسومي سيفهمون ، يوما ما ، انها رمز الخير الحق والحب الحق والايان الحق » . وبعد عودته الى امريكا نلاحظ باستمرار ان نقدها الفني لرسومه وتعليقاتها عليها كانت ذات فائدة وهجة له . ويسألها متحسرا (١٩١٢) لماذا لم يعرفها وهو في الرابعة عشرة ، يوم كان يرسم خبط عشواء من غير هاد .

غير ان يد ماري عليه في هذا المضمار لم تكن في الفن قدر ما كانت في الكتابة . فكتبه واعماله الانكليزية العديدة لم تكن تصل ايدي الناشرين او محرري المجلات قط قبل ان تمر على يديها هي . كانت بداية ذلك يوم كانت (١٩١١) تصحح له رسائله الانكليزية ، وتطورت الى تصحيحها كتاباته الادبية ، مبتدئة (١٩١٤) بمقاطع من « المجنون » ومتدرجة بعده من

كتاب لكتاب . وفي الاوراق سجل تدريجي كامل ، وسياق لا يختلف : يكتب قطعة جديدة ، فيرسلها اليها لتصحيح والتنقيح ، فتفعل ذلك وتردها اليه مع تعليقاتها وآرائها ، فيقبل بتعديلاتها ، وتطلب اليه ان يعيد لها النص الاصلي بخطه هو لتحفظ به لقيمتها التاريخية . والسياق هو هو ، عندما كان يكتب بالعربية ويسبكان النص بالانكليزية ، وعندما اصبح يكتب مباشرة بالانكليزية . والسياق هو هو ، في كتاباته الثانوية ، وفي ما يعتبره الكثيرون قمة نتاجه ، « النبي » ، الذي تناولته بقلمها الاحمر فصلا فصلا ومرحلة مرحلة ، حتى عندما اصبح في طور الملازم المهيئة للطبع ، وفي آخر كتبه المتممة ، « التائه » ، الذي كتب لها قبل وفاته بخمسة وعشرين يوما يسألها « ان تري المخطوطة بعينيك الرائيتين وتضعي عليها يديك العارفتين قبل تسليمها للناسر » . وفي الرسالة التي كتبتها له قبل وفاته باربعة ايام نقرأ ان المخطوطة بين يديها الآن وانها ستردها اليه باسرع وقت .

اكثر من مرة نراها يعملان معا على التأليف والوضع ذاته ، خاصة في السنوات الاولى لكتابته بالانكليزية . كما نراه يطلب اليها ان تستعمل حكمها وقلمها فتقص من مقطوعاته كل ما طاب لها ان تقص وتعديل فيها كل ما رأت لازما ان يعدل .

ان جبران من الادباء القلائل في تاريخ الادب الذين استطاعوا ان يكتبوا بلغتين مختلفتين ويحققوا مستوى عاليا في كل منهما . ولا شك انه مدين لماري هاسكل بالكثير في ما حققه بما كتبه بالانكليزية . لكنه كان عازما دوما على ان يكتب بالانكليزية ، وكان يهدف الى تقوية معرفته اللغوية وصقل اسلوبه الخاص ليتمكن من عمل ذلك . منذ ١٩١٢ نجده يتمنى لو يستطيع ان يفرز ستة اشهر من حياته ويكرسها لتعلم اللغة . ويبدأ بالدرس غير المنظم ، ويعمل جاهدا على تنقية لغته ومصطلحه واسلوبه . وسرعان ما يحمل ذلك ثماره ، ونسمع ماري ، في معرض تعليقها في ١٩١٤ على مقاطع من « الجنون » ساعدته على ترجمتها ، تقول ان لغته الانكليزية مدهشة وفيها صفات لم تكن هي لتمتلكها لو كانت مترجم عن الاصل . ويزيد حماسها له مع الايام ، الى ان تقول (١٩٢٠) « ان انكليزية خليل هي ارفع انكليزية اعرفها — لانها لغة خلاقه وبسيطة بساطة رائعة » . وتقول في العام ذاته ان في انكليزيتيه ابداعا لا تجد مثيلا له الا في اعظم شعراء الانكليزية وفي التوراة .

ووصفها هذا لا يختلف كثيرا عن وصفه هو — بتعديل مناسب : فيقول لها في ١٩٢٣ ان كل ما يعرفه من الانكليزية قد تعلمه من شيكسبير ومن التوراة ، ومنها هي . غير ان حسرة ظلت في قلبه فيما يختص بلغته واسلوبه الجديدين ، بالرغم مما حققه فيها ومن الشناء الذي انصب عليه من ماري ومن قرائه الكثيرين وقارئاته الاكثر . يقول في ١٩٢٠ : « ان

لي اسلوبى الخاص باللغة الانكليزية - لكنني لن اتمكن قط من تغيير اللغة الانكليزية ، بالشكل الذي غيرت به اللغة العربية . ففي العربية قد خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة كانت قد وصلت حداً بالغاً من الكمال - لم ابتدع مفردات جديدة بالطبع ، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة .

يقول لها ذات مرة في ١٩١٧ انه تتلمذ عليها ، انه طالب في مدرستها . والواقع انه لم يغفل قط عن الاعتراف بجميلها عليه وعن اعلانه بما لا يترك ادنى لبس . « انت اعطيتني هذه اليد » (١٩١١) ، انك تجملين تفكيري ادفأ واصفى (١٩١١) ، لا ابدأ عملاً حقاً بدونك (١٩١١) ، « انت ام هذا الكتاب » (« الاجنحة المتكسرة ») (١٩١١) ، انت تنيرين لي ابهى الاصقاع فيّ ، ومع سواك لا افعل اكثر من ان اتلعم (١٩١٤) ، انت عارضتي ، ووكيلتي ، ومحررتي (١٩١٤) ، لولاك لما كتبت « المجنون » (١٩١٤) ، « انا اومن بك للحد الذي اومن فيه بنفسي ، ولا اريد ان افعل شيئاً لوحدي » (١٩١٤) ، يستحيل تماماً ان اعمل شيئاً بدونك (١٩١٥) ، ليالي الخلق التي عرفناها معا جعلتني واعياً لله (١٩١٥) ، « انك تعرفين النفس وهي تجتاز طور الحمل وطور الولادة » (١٩١٦) ، لا اعمل على كتاباتي مع اي شخص آخر (١٩١٨) ، « لم يكن بوسع احد ان يكتب « النبي » بدونك انت » (١٩٢٣) .

اجل ، لقد جاء الوقت ، كما توقع في رسالته تلك (١٩٠٨) لماري ، وصار بوسعه ان يقول : « لقد اصبحت فناً بفضل ماري هاسكل » . ورغم مبالغاته في العادة ، الا ان مقاله لها في احد ايام ١٩١٣ كان صحيحاً وكانت صحته ستضح وتثبت اكثر فيما بعد : « لقد اعطيتني الحياة ، بمعنى حرفي . لاني اعتقد اني كنت لاموت لو لم اتمكن من تحقيق هذا الانتاج » .

تمطين وتمطين ، كما الاطيار تغني

مؤلف « مرايا النفس » هو الوحيد من الكتاب الذين تناولوا حياة جبران ونتاجه بالدرس ، الذي لا يقبل بدون تشكيك قضية مساعدة ماري هاسكل لجبران مساعدة مادية جزءاً كبيراً من حياته . فهو يذكر انها « تكفلت بنفقات طريقه الى باريس ليتابع دراسته الفنية » ، لكنه لا يذكر الاعتمادات الشهرية التي كانت تخصصها له ، ولا المبالغ الاضافية ، ويقول ان الوصي على مخلفات جبران اطلمه على ان المرأة التي اعانت جبران مالياً « كانت امرأة ثرية اسمها ماري خوري » . ويفضل الا يصل الى قرار ، فيختم فصله الوجيه عن ماري هاسكل بالتساؤل : « ورغم هذا كله ، فان سر المرأة التي اعانت جبران مالياً يظل مستعصياً : اكانت ماري هاسكل ، ام ماري خوري - ام كليهما معا ؟ » ان ماري هاسكل ، بايمانها بجبران منذ البداية ، وبتهيئتها سفره لباريس واقامته بها ،

وبالمخصصات التي ظلت تصله منها شهرا بعد شهر مهما كان وضعها هي الاقتصادي ، وبالبالغ التي كانت تغدقها عليه كلما استطاعت ، كانت يد خير اعترف بها جبران و اقر بها اغلبية الذين كتبوا عنه . انها لو لم تفعل اكثر من ذلك لكان هذا كافيا لتخليد اسمها في حياة جبران ، فكيف وهي امدته بالعون الادبي الخلاق ايضا ، وقامت بينها صداقة السنين الطويلة ، وذلك الحب الذي قام بينها ؟ لم تكن علاقتها به علاقة شفيعة للفن والفنانين فحسب ، بل كانت هذه وكانت ايضا اغنى منها بكثير .

كانت ماري ميسورة الحال ، لكنها لم تكن بالتمولة الكبيرة ، التي سيان عندها أنفقت عليه مبالغ محدودة ام لم تنفقها . ومع ان جبران لم يكن الفنان الوحيد الذي استفاد من جود ماري ورغبتها في مساعدة الفنانين الواعدين (« اطفالها » ، كما تسميهم) ما استطاعت ، الا انه كان يدرك باستمرار ان ماري انما ترفع اللقمة عن فمها لتعطيها له ولسواه ، وانها من محبتها تعطي لا من الفائض عنها . « ألسنتِ تضحين تضحية كبرى كيا اتمكن من البقاء في باريس ؟ » ، يسألها في رسالة في ١٩٠٩ - « عندما قبلت تضحيتك قبل عام لم اكن ادرك مدى ضخامتها . لكنني ادرك الآن ، ايتها الصديقة الحبيبة . اني اسميها تضحية ، لكنها شيء اجل من ذلك بكثير جدا - انها الحب كما الله ذاته يريد ان يكون . وبعد ان يعود من باريس ، وتظل الاعتمادات الشهرية تأتيه بدون انقطاع او تأخير ، يشعر بانه يثقل عليها ، ويقترح عليها (١٩١١) ان توقفها عنه ، متبرعا بان يعمل في احدى الصحف ، حيث يمكنه ان يحصل ٤٠ او ٥٠ دولارا كل شهر . لكنها تؤكد له انها لن تقبل ذلك - « لا لشهر ، ولا ليوم ، ولا لساعة » .

كل شهر ٧٥ دولارا ، بالاضافة الى منح من حين لحين : « آه يا ماري ، لماذا ارسلت لي مزيدا من المال ؟ عندي كفاية . لقد اعطيني اكثر مما احتاج قبل مجيئي (الى نيويورك) . لتبارك السماء يديك المفتوحتين » (١٩١١) . « ألم تعرفي ، ايتها الحبيبة ماري ، انه ما يزال لديّ في البنك مبلغ يكفيني لسنة ؟ انك تعطين وتعطين بدون حساب - تعطين كما الاطيار تغني . ليبارك الله قلبك ويديك » (١٩١٦) .

وعندما تشب الحرب العالمية ، وينهمك جبران في نشاطات بعيدة عن الرسم والكتابة ويكرس ذاته لجمعية اغاثة المنكوبين في وطنه ، نرى ماري تهرع بدورها الى نجدته ، ونقرأ ، ما بين ١٩١٦ و ١٩١٨ ، عن مناسبات عديدة تبعث له فيها بمبالغ مختلفة من المال ، منها هي ومن المدرسة ومن الطالبات ، ليرسلها الى المحتاجين في لبنان وسوريا .

واقترحت عليه مرة في ١٩١١ ان تبذل في اجراءات تقديم الاعتماد الشهري له ، فتعطيه ٥٠٠ دولار دفعة واحدة ، وهو المبلغ الذي كانت قد خصصته له في وصيتها . ولكنه رفض ، لانه يريد ان يعيش على اقل مقدار ممكن من المال كل شهر . ويسألها كيف تصاغ

الوصية بشكل قانوني ، بحيث يستطيع ان يسجل جميع صورهِ باسمها : « اذا مت » ، فاني لا اريد اي شخص آخر ان يلمس لوحاتي او ان يقول اي شيء عنها ، سواك انت . اريدها كلها ان تكون بين يديك . كيف افعل ذلك ؟ وكيف اعلم لتسديد المال الذي قد استنفدته ؟ لقد فكرت في الامر ، واريد في حال موتي ان يصبح انتاجي كله ملكا لك . ولك ان تقرري ما تشائين ، وما تحصلينه منها تقتطعين الاموال التي صرفتها انا . واذا شئت في اي وقت فيما بعد ان تبيعي ايا منها ، فالامر لك » .

في ١٩١٣ كتبت له رسالة تتضمن اقتراحا مهما . قالت انها لو كانت ثرية لابتاعت جميع لوحاته فضمنت بهذا ان تبقى معا ولا تتفرق وتبتعد عنه . اما وهي ليست بثرية ، فهي تقترح ان يعمل ترتيبا بوجبه يسدد جبران جميع ديونه منها - بلوحاته . « فكل ما هو عملك وهو قانونيا ملكي ، يكون كما تعرف روحيا ملكك انت ، وما تشاءه انت بخصوصه اشاءه انا . ان المظهر الوحيد الذي افهمه انا من مظاهر التملك هو التحكم والسيطرة . وان امتلاكني انا للصور سيعني تحكمك انت فيها » . وتقترح ان يختار طائفة من لوحاته الاحب عليه ، وان يسعر اثانها ، وينتقي منها ما كان سعرها يسدد ما قبضه منها بالاضافة الى ١٠٠٠ دولار رهنا للمستقبل . ويوافق هو على الفكرة في رده على الرسالة ، وعندما يلتقيان بعد ذلك باسابيع يقول لها : « اني اشعر بحرية جديدة ، بيقين ، منذ عملنا ذلك الاتفاق بخصوص الصور . ان عبئا قد انزاح عن كاهلي » . وتقول ماري انها هي تحس هذا الاحساس ذاته .

لكن هذه الصلة المادية بين ماري وجبران ، التي كانت مسؤولة عن نواحٍ كثيرة جميلة وخلاقة في العلاقة بينها ، كانت ايضا مسؤولة عن بعض النواحي المرة في تلك العلاقة . وسنرى ، في موضع آخر من هذا المقال ، ما لعبته اعاناتها المالية له من دور في سوء التفاهم الذي عكر حبها لفترة من الزمن .

هذا ونجد ماري تقوم على الدوام بدور المرشد له ، وتسدي اليه النصائح المختلفة . فاذا ما مرض (١٩١٢) رتبت له في الحال مشروع رحلة الى برمودا والجزر القريبة وحصلت له على جميع المعلومات عنها ، واذا ما اراد (١٩١٥) شراء اسهم في شركات مالية كانت هي خبيره المالي ، واذا ما قرر (١٩٢٤) ان يشتري حصصا في بنائية لجأ اليها للشورة . وهي تدبر له امر بروزة صورهِ ، وتكتب له عن دهان الشعر الذي ينبغي ان يستعمله ، وتشدد له على اهمية الهواء النقي في الستوديو ، وتهديه اربطة العنق . بل انها بعد وفاته لا تنقطع عن المساعدة والنصح ، وتجد ان اخته مريانا في حاجة اليها امس مما كان هو . فتكتب لها باشاراتها ونصائحها عن بيع الحصص في البنائة ، وعن التصرف بمحتويات الستوديو ، وعن قضية نقل جثثانه الى لبنان ودفنه فيه ، وعن ضرورة وضع وصية لها قبل سفرها -

وعن عدد وافر من المواضيع المعاملة . ولا تنسى ، في خضم هذه المواضيع والمشاكل الناشئة عن وفاة جبران وبليلة اخته وفجيعتها هي ، ان تختم رسالة (١٩٣١) منها لمريانا بقولها : « واذا كنت ما تزالين تقحّين ، فالرجاء ان تجربي سيداتول . فهو لا يضر ، وهو اروع دواء ناجع عرفته قط . »

اريد ان احب ، ان اعبد

لم تكن ماري ، ابنة البلد الذي وفد عليه جبران وابنة اللغة التي راح يكتشف مجاهلها ، والتي تكبره بسنين ، مجرد عون له ، خلقيا وماليا وعمليا وفي سائر الشؤون الصغيرة التي كان يوسمها ان تمدله فيها يد العون . لكنها كانت ايضا ، وفي الوقت ذاته ، التلميذة الوفية له ، والحوارية المؤمنة به باخلاص ، والمشجعة له على الدوام بكل ما اوتيت من سبل . منذ اليوم الاول الذي التقت فيه ، آمنت به وبعمله . فيما بعد اخذت ترى ان هذه الثقة النهائية به ليست منبعثة عن ايمانها به ليس الا ، لكنها منبعثة بالدرجة الاولى عن معرفتها له (١٩١١) . كل ما يقوله لها فهو صدق ، وكل آرائه حق وصراب . جميع المبالغات ، التي سنجيء على ذكر بعضها ، تبلعها كاملة من غير ماء . نصه لتاريخ اسلافه ، ولتاريخ اسرته وصباه ، مقبول لديها ؛ رؤى المسيح حرفية ؛ دوره في الحركة القومية لبلده كأنها تقرأه في صحيفة موثوقة من صحف الصباح - وتندمر من مواطنيه الذين يروي لها انهم لا يشاركونه كافة آرائه : « كم هم شرقيون ابناء شعبه - الذين لا يعتنقون افكاره هو » (١٩١٢) . وتعتقد ان كل كبيرة وصغيرة يقولها او يعملها سيكون لها صداها في المستقبل ، فعليها تسجيلها والاحتفاظ بها ، امانة له وامانة للتاريخ . كلما ارسل لها مقطوعات للتصحيح طلبت ان تحتفظ بالاصول بخط يده ، وكلما رسم خطين على ورقة مهمة اضافتها لاوراقها كنزا صغيرا ، وكلما ذهب الى مسرح سجلت كل خاطر يحول بباله على برنامج المسرح وابقت به بين مذكراتها .

له وهي واثقة من ان فضلها هي انها اول المؤمنين ، وان العالم كله سيرى رأيها فيه بعد حين ، وسيضمه الى صدره ، فنانا وشاعرا وكاتبا ومفكرا ومصلحا اوليا . « احيانا ، يا خ . ج . » ، عندما اقتبلك فاني استدعي عصورا عديدة من عصور المستقبل ، لكي تقبلك هي عبر شفقي انا ، لتعرف انت انها تجبك » (١٩١٤) . وعندما يصدر « النبي » ، وتصبح الامكانيات انجازات والوعود اثمارة ، تكتب له ، من رسالة نشوى (١٩٢٣) : « ان هذا الكتاب سيعدّ واحدا من كنوز الادب الانكليزي . وسنفتحه في ظلمتنا وفي ضعفنا لنجد انفسنا من جديد ، وما في داخلنا من سماء وارض . ان اجيالا كاملة لن تستنفد ما في الكتاب - بل ان جيلا بعد جيل ، سيجد فيه ما سيحب ان يجد - وسيحبه اكثر فاكثر تبعا لزيادة النضج في البشر . لم يكتب قط كتاب فيه من الحب ما في هذا الكتاب - على

الاقبل باية لغة معروفة لديّ - بل في اية لغة اطلاقا على ما اعتقد . وسبب ذلك انك انت اعظم محب كتب قط . لكنك تعرف ، يا خليل ، ان الشيء ذاته يحدث في النهاية ، سواء احترقت شجرة وتآكلها اللهب ام سقطت بصمت في الغاب واضحت غبارا . وهكذا فان لهيب الحب فيك يلتقي هو والدفء الاقل المكرر في عدد كبير من الناس الذين يهتمون بك - وبذا فانك تشعل حريقة كبيرة! ذلك لان عددا اكبر واكبر من الناس سيحبونك مع مرور السنين ، الى ما بعد ان يصبح جسمك ترابا بوقت طويل طويل . سيجدونك في نتاجك ، لانك فيه بشكل مرئي كما الله فيه .

ولانها مؤمنة به كل الايمان ، فانها ، رغم حبها له ورغم حس التملك الذي كثيرا ما يكون جزءا من الحب لا ينفصل عنه ، لا تريد الاحتفاظ به لذاتها فحسب ، بل تريده ، قبل كل شيء وفوق كل شيء ، ان يحقق ذاته ويؤدي رسالته . تريده مكرسا لفنه ولفكره ، ومكرسا لوطنه وقضايا وطنه . هذا هو المهم ، وكل ما عداه ، حتى بقاؤه معها ، ثانوي . كم من آراء جبران ، في كل مرفق من مرفق الحياة وفي الفن والفنانين والشعراء والشعراء والفكر والمفكرين ، لم نكن لنعرفها قط لولا ان استفزته ماري لاعطائها وسجلتها لنا بامانة في اوراقها . في يومياتها لعام ١٩١١ تذكر سهرة دارت فيها احاديث متشعبة طويلة ، ثم تعاتب ذاتها فيها بعد لانها تكلمت كثيرا ، بدل ان تعمل جاهدة على جره هو للتكلم ، ولتسجيل ما كان ليقوله لو هي افسحت له المجال .

مؤمنة به الايمان كله ، ومطلعة اياه باستمرار على ايمانها هذا . لا التلميذة فحسب ، بل التلميذة المتغنية ابدأ بفضائل المعلم . « ليظل الله يتكلم كما تكلم كما تكلمك ويرسم رسومك ويحيي حياتك معك ، كما يفعل الآن ، ايها الحبيب خليل » (١٩١٤) . « ان ما انت ، قد جعلني افكر : الا يتطور البشري الى ما هو بعد البشري في آخر الامر ؟ ... السمت انتقالا ... وانبثاقا؟ (١٩١٥) . « ان خليل واحدا من افراد الزمرة التي تضم فيمن تضم المسيح وبوذا ومايكلنجيلو وشيكسبير وسواهم ممن هم بالعظمة ذاتها » (١٩١٥) . « اني اثق به ثقة مطلقة لا حد لها ... عندما لا اثق به يضطرب في كل شيء ، وتعود ثقتي به فتصفي الامور في الحال ... ان الثقة به امر غير وارد ، كالثقة بالله : فكلمة ثقة بجد ذاتها تتضمن امكانية عدم الثقة . انه حقيقي كما الاشجار والنجوم حقيقية - ومثلها هي لا يستدعي عدم الثقة » (١٩١٢) . وعندما يقول لها (١٩١٤) : « اريدان احب ، ان اعبد ، مدى قرون » ، تقول معلقة : وسيحب ويعبد مدى قرون . ونقرأ في هامش في مجموعة الرسائل ان رسائل جبران لها بتاريخ ٨ و ٢٢ و ٢٣ تموز (يوليو) ١٩١٤ فقدت منها في ٣ آب (اوغسطس) عندما سرقت محفظة يدها التي كانت فيها الرسائل وهي في قطار . « لكنني كنت احفظها عن ظهر قلب - وهذه اعادة دقيقة لها من الذاكرة » .

ونراها تصف بأسباب زيارتها ، معه او لوحدها ، الى المعارض والمتاحف ، وتعليقاتها على اللوحات والتماثيل ، وتقول انها ترى القطع الفنية الآن في ضوء جديد ، بفضل تعليم جبران لها . ويحدثها مرارا عن مواضيع مختلفة ، دينية وادبية وتاريخية ، لا تعرف عنها الكثير ، فتنعلم منه ، وتسجلها جميعها في دفاترها ، كأنها تكتب فرضا مدرسيا . وفي رسائله كذلك الحال كثيرا ما نراه المعلم ، وهي التلميذة المصغية التي تطمس شخصيتها هي لتقبل ما يقوله معلمها . ابي موضوع يكتب لها عنه يصبح مجالا للنقاش وللأخذ والرد طوال رسائل عديدة . كل كلمة يقولها لها ، خاصة ان دارت على الله او النفس او الكون او المطلق او الجمال ، تصبح انجيليا تتقبله في الحال وتستوضحه عنه اكثر . فقراته عن الروح والغيبيات تهزها كما كانت لتهزها فقرات غزلية جامعة .

لكنها ، لتكون تلميذة مثالية ، لتعرفه معرفة تامة ، يجب ان تزيح العائق العنيد بينها : اللغة . وهذا عن طريقين : اولها جره هو اليها ، بواسطة مساعدتها له ما استطاعت ان يكتب بالانكليزية ، كما رأينا من قبل ؛ والآخر ، وهو الاشق عليها ، ان تنجر هي اليه ، بواسطة تعلمها للغة .

كان تعلم العربية فكرة راودتها منذ وقت مبكر في علاقتها معا . لكنها كانت لا تعير اهتماما كبيرا لاجراجها الى حيز التنفيذ - بل كانت تقصصها عنها بنصف دعاية ، مؤمنة ان تتعلمها في حياة قادمة بعد التعمص التالي . لكنها منذ ١٩١٢ لم تعد تكتفي بذلك ، وارادت ان تنال نصيبها من معرفة جانب رئيسي في جبران غامض عليها ، في الحياة الحاضرة ايضا . فعولت على تلقي دروس بها . نقرأ في اليوميات (١٩١٢) انها كانت ترغب في الهجر الى بيروت لتلقي الدروس العربية في « جامعة خليل في بيروت » (تقصد بها معهد الحكمة) ، لكنها تبدي اسفها حين يخبرها جبران انها ليست مفتوحة للنساء . وتكتب له في ١٩١٣ انها ان لم تفلح في تعلم العربية في بوسطن فستذهب لتعلمها في القسطنطينية او سوريا . وتزيد اصرارا ، وتفكر بترك مهنة التدريس ، التي مارسها منذ قبل تعرفها الى جبران ، بقصد العكوف على درس العربية ، كما تتمكن من ترجمة نتاجه بالعربية الى الانكليزية . وفي صيف ١٩١٣ تذهب الى كاليفورنيا ، وتستغل عطلتها للبدء بالدرس ، ونجد في رسائلها في تلك الفترة اسئلة كثيرة منها واجوبة منه عن طريقة اللفظ وما شا كل . وتؤكد له في رسالة (١٩١٢) : « لن اموت ، يا خليل ، قبل ان اكون قد قرأتك ! اصغِ لما اقول ! لن اتركك في هذا العالم قبل ان اقرأك ! » لكن التلميذ ، مها كان مصرا على التوصل الى اعماق معلمه ، يحتاج لنجاح ذلك الى شيء من التشجيع من معلمه ذاته . وهذا التشجيع ، في هذا المضمار بالذات ، لم تحظ به ماري من جبران . تقول في يومياتها للعام ١٩١٤ : « على العشاء طلبت مشورته بخصوص محاولتي تعلم العربية وسألته ان كانت تستحق مثل هذا العناء . قال انها

لا تستحق مثل هذا العناء - لان بوسعي ان اقوم باعمال اخرى اكثر ابداعا : وانما هي الاعمال المبدعة وحدها التي تستحق مثل هذا العناء . بعد ذلك لا نعود نقرأ عن محاولات جادة من طرفها ، لدراسة لغة معلمها . لكن ، ايضا ، بعد ذلك يكون جبران قد بدأ ينصرف الى الكتابة بلغتها هي .

ابعد من الف عام لا استطيع ان ارى

في الكتب المختلفة عن جبران مقاطع نجدها هنا وهناك نستغربها لاول وهلة ، عن ادعاءاته امورالم تكن صحيحة وسرده احداثا تتعلق بماضيه هي مجرد اختلاق . لكن هذه التتف قليل من كثير مما نجده في الاوراق التي ندرسها هنا من اختلاقات وادعاءات ومهورات ، لم يكن لها اي لزوم او مبرر ، فما كانت لتزيد في اهميته الحقبة ، وما كانت لتزيد في كسب محبة ماري له ، رغم انها كانت تبتلعها بيسر وتصدقها كل التصديق .

فهو لا بد ان يكون من اسرة نبيلة يعود تاريخها المعروف الى قرون عديدة للوراء . وهو يروي لماري (١٩١١) ان اجداده جاءوا دمشق في القرن التاسع ، وكانوا حكاما اشداء ، شتق ثلاثة منهم ، وتوجه بعضهم الى جبل لبنان في القرن الثاني عشر ، وحكموه ببأس ، وقتلوا بالسيف . وفي الحروب الصليبية شاهد مطران صليبي احد الملوك من آل جبران يمتطي جواده ويتسربل بثوب ابيض . فسأل عن اسمه ولما قيل جبران قال المطران انه قد يكون الملاك جبرائيل ، لوسامته وبهائه . ويروي لها في مناسبة اخرى (١٩١٥) ان اميرين من آل جبران صلبا في انطاكية في اوائل القرن الرابع عشر ، وان احد افراد الاسرة يم في القرن الثالث او الرابع عشر فرنسا وايطاليا وسعى الى ان يبدأ حملة صليبية جديدة - لكنه فشل في سعيه ، وعاش هناك زمنا طويلا .

وعندما يحدث ماري عن اسرته في تاريخها الحديث يتابع النمط ذاته ، فجده لابييه (١٩١٠) ثري ارستقراطي كبير يحتفظ في داره باسود كما يحتفظ الانسان عادة بكلاب ، وجده لامه مطران معروف بسعة اطلاعه وحبه البحث والدراسة ، ويتكلم الاغريقية واللاتينية والفرنسية والايطالية بالاضافة الى العربية ، بل انه (١٩١٤) كان هو وراهب ايطالي « يتكلمان باللاتينية معا على الدوام ، بذات اليسر الذي اتكلم واياك الانكليزية الآن به » . وجدته لامه كانت ابنة اغنى رجل في لبنان (١٩٢٣) . ويصف بيته في بشري واتساعه واثائه الفاخر (١٩١٠) . وفي ١٩١١ يذهبان معا الى احد المتاحف ، ويدنو من المنصة الضخمة المعروض عليها القرآن الاثري ويقول انه يشعر كأنه في بيته ، ويروي لها ان في بيته في بشري سبع نسخ مثل هذه وان مجموعة القطع الجميلة فيه هائلة ومنشورة في سائر انحاء البيت .

ويحدث ماري (١٩١١) عن امه ، وعن انها كانت رفيعة الثقافة ، تتكلم الفرنسية

والايطالية والاسبانية والانكليزية عدا العربية . وفي ١٩١٨ يعود الى الحديث عنها ، ويروي لها ان امه قبل وفاتها بيوم واحد كانت تحادثه عن صوفية توما الاقوييني والقديسة تيريزا . هذا ونحن نعرف من دراسة الدكتور حاوي ان ام جبران كانت ذكية مستنيرة لكنها لم تكن متعلمة ابدا ، وقد بنى رأيه هذا على مقابلة لابن اخيها . ويقول (١٩١٥) انه لما كان في اوائل عهد طفولته كان في بيته مربون يعلمونه اللغات المختلفة ، من انكليزية وفرنسية والمانية ، لكنه يقر انه لم يستطع ان يتعلم كلمة واحدة من الالمانية .

وسألته ماري ذات يوم في ١٩١٦ متى بدأ يكتب الشعر . قال في سن العاشرة او الثانية عشرة ، وانه كتب اذ ذلك قصائد رومنطيقية طويلة ، وان واحدة منها فحسب قد نشرت لكن قصائده هذه يغنيها المئات في سوريا ومصر . وقال لها (١٩١٥) انه ما بلغ الثالثة عشرة او الرابعة عشرة حتى كانت قد نشرت مقالات في الصحف وكتيبات عن نتاجه وعن رسومه . وانه اثر ظهور « الارواح المتمردة » تلقى تهنئة من خديوي مصر (١٩١١) . ولم يكن نبوغه ابكر في الادب منه في الفن : بل على العكس من ذلك ، عرض جبران على ماري في ١٩١٧ لوحة قال انه صورها يوم كان في الخامسة من عمره ، وقال لها بخصوصها : « اني ابو التكعيبية ! » - وترد ماري ، بايمانها المعهود ، ان هذه الصورة دراسة لابن لاي امري اليوم ان يسميها تكعيبية .

غير ان مبالغات جبران هذه ، اذا لم نشأ ان نستعمل لوصفها كلمة اقوى ، لم تقتصر على بواكير حياته وعلى تاريخ اسرته منذ قرون ، بل تعدتها الى حيواته السابقة لحياته الحالية . فهو يؤكد للماري (١٩١٦) ان عنده شعورا واعيا بكونه عاش حياة بشرية في الماضي ، ويقول لها في ١٩١١ انه في حيواته الماضية عاش مرتين في سوريا ، لكننا لفترات قصيرة ، مرة في ايطاليا الى سن الخامسة والعشرين ، وفي اليونان حتى الثانية والعشرين ، وفي مصر حتى الشيخوخة ، وعدة مرات ، ست مرات او سبعا ربما ، في بلاد الكلدان ، وواحدة في كل من الهند وفارس . ويردف انه في هذه الحيوات كلها كان كائنا بشريا ، لكنه لا يعرف شيئا عن حيواته قبل ذلك . وتساءله ماري في آخر ١٩٢٠ كم قرنا في المستقبل يعني الآن وكم قرنا في الماضي ، فيرد ، بدون رمشة عين كما يبدو ، انه يستطيع ان يرى ما بعد ٥٠٠ عام في المستقبل بوضوح اجلى مما يرى ما بعد ٢٠٠ عام به ، والف عام اوضح من ٤٠٠ عام - « اما ابعد من الف عام فلا اشعر اني استطيع ان ارى . ابعد من ذلك لن تكون القضية الا قضية تحزير » . اما الماضي فبوسعنا ان نعيش فترة النهضة فيه بيسر شديد . لكن الفترة الايسر عليه هي قبل الف سنة .

و نجد المبالغات ذاتها في رسائله واحاديثه لماري فيما يتعلق بدوره الوطني ، خاصة ابان

الحرب العالمية وبعدها . فهو يروي لها (١٩٢٢) ان الحكومة التركية نفتته من وطنه ، ويكتب لها في ١٩١٤ عن « رسالته الى الاسلام » ويقول لها انه بكتابته لها قد وقع بيده على وثيقة موته - « لكنني لا اعبأ » . وعندما تشتعل نيران الحرب فعلا ينبشها عن عزمه على الذهاب الى سوريا ، لانه يأمل ان يكون عاملا فعالا في حمل السوريين على الثورة ضد الاتراك . ويطلع ماري على خطته المفصلة فيما يختص بالاقاليم العربية المختلفة ، لكنها تلاحظ : « اعتقد انه لم تكن لديه خطة معينة لوادي الفرات » . وتسأله ان كان عنده عدد من الرجال الذين يمكنه ان يلجأ اليهم عندما يستهل العمل ، فيجيب بتواضع ان عنده نفرا قليلا لكن عددا اكبر سيتوفر فيما بعد . وفي ١٩١٦ يحدثها عن ان الذين وقعوا العريضة في مؤتمر باريس الذي كان من المفروض ان يحضره قد سقطوا في ايدي الاتراك ، ففتك هؤلاء بالموقعين - ويقول لها انه كان يعرف حوالي خمسين من هؤلاء الشهداء معرفة شخصية . ويقول لها ، عن فكرة الحكم المحلي لسوريا ، انه انما كان هو منشىء هذه الفكرة والموجه لها .

وتروي ماري في مذكراتها لآخر ١٩١٧ ان جبران ، الذي كان قد جاء لصراف عيد الميلاد في بوسطن ، اراما ندبة في ذراعه قال لها انها آثار جرح نجم عن رصاصة اطلقت عليه حينما كان في باريس يخطب عن الاتراك ، وان محاولة اغتياله هذه دبرها الاتراك للتخلص منه ، وان النار اطلقت عليه من مسافة قريبة جدا . وتلاحظ ماري ان جبران لم يكن قد ذكر لها قط شيئا عن هذه المحاولة فيما مضى (وقد مرت عليها ، ان صححت ، حوالي ثمانى سنوات ، وهو الذي كان يخبرها عن كثير من الحوادث الاعتيادية البسيطة التي تحدث له) . لكنها ، بالطبع ، لا تشكك في ما يقول ، بل تعلق : « غير ان التهديدات والمؤامرات لا تؤثر عليه في شيء » .

وبانتهاء الحرب لا ينتهي دوره في الجهاد . فهو يروي لماري في ١٩٢٢ ان بلاده لا تني تدعوه اليها لانها في حاجة له ، ويقرر : « ان الشرق في واقع الحال ليس من شعلي . فالحركات مها كانت نوعيتها ، سياسية او ادبية او حتى فنية ، لا تعينني » . لكن الظاهر ان بلاده لم تفقد الامل ، اذ اننا نجده بعد سنوات ، في خريف ١٩٢٨ ، يكتب لماري : « ان الصيف لم يكن صيفا سعيدا بالنسبة لي . فقد عانيت الآلام معظم الوقت . لكن ما هم ؟ لقد كتبت قطعا كثيرة بالعربية ، اناشيد وقصائد نثرية . بل فعلت اكثر من ذلك ، وانا اعاني الالم . فقد اخبرت اهالي جبل لبنان انه ليست لي رغبة في ان اعود اليهم واتولى الحكم فيهم . ذلك انهم يريدونني ان افعل ذلك . وانت تعرفين ، يا ماري ، اني مشتاق لوطني وان فؤادي يحن الى تلك التلال والوديان . لكن من الافضل ان البث هنا واشتغل » . من هذه المبالغات ، ايضا ، التي ادرك جبران ولا شك انها ستفعل فعلها في نفس ماري ،

احاديثه لها عن المسيح . ليس فقط احاديثه عن آرائه اللاهوتية الخاصة فيه ، التي تبلورت في كتابه « يسوع ابن الانسان » ، بل وبالاهم احاديثه عن علاقته الشخصية به . فنجدته مرارا وتكرارا ، في الرسائل واليوميات على السواء ، يحدثها باسهاب عن احلامه ورؤاه التي يظهر له فيها المسيح . نرى هذا منذ العام الاول في تاريخ هذه الاوراق ، ١٩٠٨ ، ونظل نراه مدة خمسة عشر عاما . وتقول ماري (١٩١١) ان جبران اخبرها ان من عادته ان يرى المسيح « لا اقل من مرتين في العام الواحد - لكنه لا يراه مطلقا اكثر من اربع مرات في العام الواحد » .

رآه لأول مرة (يقول ، ١٩١١) عندما كان عمره اربع عشرة سنة ونصف السنة ، وهو على ظهر الباخرة العائدة به الى سوريا . في منامه ذلك رآه قرب بشري ، ولم يكلم احدهما الآخر ، لكن المسيح جلس الى قربه على الحجر . ويصفه جبران لماري ، ويقول انه دوما يظهر له على ذات الشاكلة ، وانه « لا يشبه ابدا اية من الصور المعروفة له ... ففي الصور يبدو على الدوام وكأنه قد خرج لتوه من الحمام ، بشعره المسوّى جيدا . اما انا فاراه في يوم قائف - دوما اراه في منتصف النهار - وعلى قدميه غبار ، وفي يده عصا ، وشعره منكوش ، يرتدي ثوبا رمادي اللون ، ذا حاشية بلون الغبار ، وقد تهرأ وحف في اسفله » . ويقول انه قوي البنية ، حسن الصحة ، ذراعاه وساقاه شديدة ، اما عيناه « فاني مستعد ان اعطي اي شيء لو اني استطيت ان اخبرك عن عينيه وجلده : فانا لم اشهد مثل لونهما على بشري ابدا . ان عينيه ليستا بالخرزيتين ولا بالمرحتين ، لكنها مليتان بالحياة والتفهم والحوية والعمق والراحة والبعد والبساطة ... انه ليس كبير الحجم وليس طويل القامة ، بل مجرد انسان معتدل القوام » .

مرة بعد مرة يصف جبران المسيح في احاديثه لماري ، كما رآه في رؤاه ، وصفا دقيقا مسهبا ، وفي غالب الحالات لا يكون الوصف اكثر من تكرار واعادة لهذا الذي سبق . غير ان ماري لا تسأم السماع ، وكأنما جبران يدرك انها تحب ان تسمع ما اصبحت تعرفه كما يعرفه هو - كالطفل الذي يصر ان يسمع من جديد قصة بات يعرف كل تفاصيلها .

لا يتراءى المسيح له في احلامه الا في وطنه . وغالبا ما لا يستطيع ان يتذكر ما دار بينها من حديث ... « لا اتذكر كلماته ، ولكنني احس بها الآن كما يحس المرء في الصباح بوقع الموسيقى التي استمع اليها في العشية السابقة » ، كتب في رسالة لماري في ١٩٠٨ . واذا كان لم يدر بين المسيح وجبران حديث مهم ما ، الا ان علاقاتها كانت ودية اليفة . ففي عهد الاحلام (١٩١٩) يملأ المسيح يدي جبران بالكرز ، وفي حلم آخر (١٩٢٣) يرد

جبران الجميل له : فيقدم له الرشاد ويأكله المسيح بتلذذ .

لهذه الاحلام والرؤى كانت تعني له الكثير ، وكان ينقل تفاصيلها الى ماري في الحال .

ويتذمر مرة في احدى رسائله اليها (١٩١٢) : « آه يا ماري ، يا ماري ، لماذا لا يمكنني ان اراه في احلامي كل ليلة ؟ » ويأتيه جواب ماري : « كم انت عزيز ، يا طفلي ، لانك اخبرتني عن حلمك عن يسوع ، وعن شعورك في اليوم التالي . ان ذلك كينبوع ماء عذب عميق يتفجر . كم انت مطوب لانه قد بدأ يأتيك كعادته في هذه الفترة الجديدة من حياتك » .

بعد هذا يتقدم خطوة اخرى ، ويخبرها (١٩١٩) انه رآه الآن كما كان يراه في احلامه ، لكننا اوضح بكثير - ويضيف عبارة حبل بالمغزى : « ولم اكن احلم » . ثم يقول لها ، تمشيا مع الخط ذاته ، في اليوم الاخير من عام ١٩٢٢ ، انه والمسيح مولودان في اليوم نفسه - تقول ماري في يومياتها : « وعندئذ اخبرني بان يسوع في الواقع ولد في ٦ كانون الثاني (يناير) » . وتضيف : « وهذا هو تاريخ ميلاد خليل ذاته » .

لكن علينا ان نقول ، في هذا المجال ، ان التنبؤات التي كان يدلي بها عن مدى حياته وحياتها كانت صائبة لحد كبير . فهو يقول لها في ١٩١١ بأنه يعتقد انه سيعيش خمس عشرة سنة او عشرين سنة اخرى ، وانها ستعيش الى السبعينات من عمرها ؛ وفي ١٩١٦ يقول انه سيعيش خمس عشرة سنة او سبع عشرة سنة اخرى ، وانها ستعيش الى الثمانينات من عمرها . وقد صدق حدسه ، فقد مات في ١٩٣١ - بعد ٢٠ سنة من التاريخ الاول و١٥ سنة من التاريخ الثاني ، وعندما ماتت ماري كانت قد تجاوزت الثمانين .

سيان ، ان اكتب رسالة لك أو قصيدة

لم يكتب جبران في حياته عددا من الرسائل ، لرجل او امرأة ، بالقدر الذي كتب به الى ماري هاسكل ، ولم يتلق اجوبة عليها بالقدر الذي تلقاه منها ، ولم تتسم الرسائل المتبادلة بينه وبين اي سواها بما اتسمت به الرسائل التي تبادلها مع ماري من طول ومن عاطفة ومن اعتراف ومن صدق .

يقول الدكتور جبر ان جبران كان ينقح ولا يمل ، « وقد عثرنا على رسالة وجهها الى مي وضع لها خمس مسودات » . ويشير الدكتور حاوي الى انه في رسائله يعتمد الاسلوب الادبي كما في مؤلفاته ، لا الشخصي ، وانه ينقح وينقح الى ان تضيق منها جميع المعالم الشخصية الخاصة . لكن هذا الذي يقوله الدكتور جبر والدكتور حاوي عن الرسائل الاخرى لا ينطبق على الرسائل التي بين يدينا . فهي في اكثريتها الساحقة رسائل تلقائية عفوية ، لا تنقيح فيها ولا تعديل ولا تصحيح ، ينطلق فيها الكاتب من فكرة لفكرة قبل ان يستكملها ، ثم يعود اليها عندما تخطر ثانية بباله بعد فقرات ، وفيها اخطاء كثيرة كان ممكنا تداركها لو ان كاتبها اعاد النظر فيها مرة واحدة ، سواء في التهجئة او في تكرار الالفاظ او في عدم اكتمال العبارات . وهي رسائل كاشفة مخلصة ، لا حجب فيها ولا

وقد كان كل من المتكاتبين واعيا لقيمة هذه الرسائل وفرادتها، شاعرا باميتها في حياتها وفي علاقتها . فهو يكتب لها (١٩١١) عن مفعول رسائلها : « آه ، تلك الرسائل ، تلك الرسائل الغنية التي تصلني منك . كل منها وليمة لنفسي الجائعة هذه . انها اكثر من رسائل . انها تواريخ موجزة لقلبك الشبيه بالاقيانوس » . ويتحدث (١٩٢٢) عن رسائله لها : « ان الرسائل التي اكتبها لك ليست رسائل . فليست لدي اشياء معينة اكتبها لك - عن هذا الامر او ذلك . انما انا اعبر فيها عن نفسي . والامر سيان تماما بالنسبة لي : ان اكتب رسالة لك ، او اكتب قصيدة بالعربية » .

تشكو ماري في يومياتها (١٩١٢) من ان جبران لا يحشو رسائله لها بعبارات الحب التي اعتاد تبادلها المحبون : « لقد كنت واعية لفرق بيننا وبين ما اعتاد عليه المحبون - هو في قلة الرسائل ما بين خليل وبينني - وفي قصر رسائله هو على الاقل ، وقلة تعابير الحب فيها . لقد كنت اعرف على الدوام ان ندرة كلمات الحب في حاله منشأها وفرة الحب فيه ، لا ندرته - لكنني لم اعرف قط لماذا الامر هكذا . اما الآن فاني اعرف ان هذا لان حياته هو كلها نوع من الحب ، كلها حب » . وبعد سنين طويلة ، في ١٩٢٣ ، كانا يتحدثان عن رسائل الحب ، وافضى اليها بانه لم يكتب في حياته كلها رسالة حب واحدة .

لكن ماري لم يكن لها في الواقع ان تشكو ، ولم يكن لجبران ان ينفي بسرعة انه كتب في حياته رسائل حب . ما علينا الا ان ننظر ، ولو نظرة عجيلى ، الى رسائله والى رسائلها ، مروراً من عام لعام ، لنرى (بالاضافة الى الجوالعام ، وهو الاعم ، جو الحب) عبارات غرامية لم يكن جبران ولم تكن ماري ليكتبا اشد منها ، وطبيعتها الشخصية هي ما هي .

جبران لماري : « اقبل يدك يجفني ، يا ام قلبي العزيزة » . « اننا جميعا ، وكل واحد منا ، يا عزيزتي ماري ، لا بد ان يكون له مكان راحة في موضع ما . قد يكون ذلك المكان كتابا او فكرة او ذكرى نصف منسية . اما نفسي فكان راحتها هو تلك الحديقة الجميلة الغريبة التي تسكن فيها معرفتي لك . شكرا لله ولك على وجود تلك الحديقة » . في عيد الميلاد : « افكر فيك ، يا صديقتي الحبيبة ، كما لا افكر باي انسان حي . وعندما افكر فيك تصبح الحياة افضل واسمى واكثر جمالا بكثير . اقبل يدك ، يا عزيزتي ماري ، واذ اقبل يدك فاني اجلب على ذاتي البركة » . « اجل ، ايتها الحبيبة ماري ، لقد مضى اكثر من عام منذ رأيتك آخر مرة . ويعلم الله اني جائع لقربك . انه جوع مؤلم احيانا ، وهو احيانا جوع عميق حلو » . « دعيني اقبل يديك - اليدين المليئين بنور الله » . « ماري ، ولها الحبيبة ماري ، عندما تكونين لوحداك ، في صمت الليل ، ارسلني لي نسمة من انفاسك ،

نسمة صغيرة من انفاس قلبك ، وسأعكف على عملي بشكل افضل . « آه يا ماري ... لا ادري لماذا احس اليوم بهذه الوحشة التي احس بها ... اريد ان اكون في العالم العربي ، او ان اكون معك . » « والآن دعيني اصرخ بكل ما في حنجرتي من صوت : اني احبك . » « اتحدث اليك ، يا ماري ، كما اتحدث الى قلبي انا . انت وقدرتي شيء واحد ، لا ينفصل ايها عن الآخر . وكيف يخبىء المرء شيئاً ما عن قدره ؟ » « ان ساعة معك في هذا الستوديو الصغير لافضل من اسبوع في جبل لبنان . »

ماري لجبران : « اتنى لو استطيع ذات عشية ان اضعك في الفراش لتنام ، ومن ثم ان انظر الى يديك وقتاً طويلاً وبصمت كما اشاء . اني ككلب جائع يريد لقمة واحدة . » في يوم مولده ، ١٩١٢ : « شكراً للاله الطيب الذي وهبك لأمك قبل ٢٩ عاماً ، والذي قبل عام قربنا واحداً من الآخر ... يا اعز تجليات الله ... يا معلمي . » « ان هاتين اليدين الحلوتين الهشتين تحبان ، يا خروفي ، ان تسقياك الحليب ، وان تغسلا حوافرك ، وان تعقدا شريطاً جديداً ازرق حول عنقك . » « لماذا ليست ذراعاك ست ساعات طولاً لتصل بهما الى بوسطن ؟ » « ومتى ستأتيني في حلم فتحيل الليل احلى ما هو الليل ؟ » « انت جوهرى كما انا جوهر ذاتي . لقد مزجنا معا في خابية ، ولا استطيع ان افصل جوهرى واعزله . » « آه يا رمانتي ويا زهرة الرمان . » « انت حريتي وربى الذي يفهم كل شيء - وانا احبك وسعيدة معك . » « ان استطعت ، ايها العزيز ، ان تستحم في بحر جوعي اليك ، فان بحري سينتعش . » « أيضاً جرك ان اظل اقول باستمرار اني اجد فيك راحتي وانتعاشي كأنك الشمس والظل والماء - وان التفكير فيك لكاهواء النقي والضياء والحرية ؟ » « يا بروميشوس ، ايها المسيح . » « وآخر كلماتها المكتوبة له اطلاقاً ، في ختام رسالتها الاخيرة قبيل وفاته : « حي ، حي ، بركتي . »

النساء من نوعك يستثنى الرجال

الصورة التي ارتسمت في اذهان اجيال القراء لماري هاسكل هي لحدّ كبير الصورة التي رسمها لها الاستاذ نعيمة في كتابه . فهي المرأة الامريكية التي تكبر جبران بعشرين ، البعيدة عن كل امائر الجمال والاعزاء والجاذبية والاناقة . ويقتبسه الدكتور حاوي ، ويقره على وصفه ، بناء على صورة فوتوغرافية لماري وصورة فنية لها بريشة جبران موجودتين في المتحف في بشري . غير ان فليكس فارس يستهجن وصف الاستاذ نعيمة لها : « اذا نحن اخذنا بوصف المؤلف لماري لتمثلها امرأة مشوهة الخلق ، لا حواجب ولا اهداب لها ، مستطيلة الانف ، يبدأ فيها من متوسط خدها الايمن لينتهي عند متوسط الحد الايسر ، وهو منفرج عن لثتين تركبت فيها اسنان متراكبة فلجاء ، صدرها ضيق وكتفاه عاليتان تمتد منها ذراعان طويلتان تنتهيان بكفين طولهما ضعف عرضها ، ركبت فيها انامل عظمها

اوفر من لحمها . فهل يجد القارىء مناصا بعد هذا الوصف من ان يقول : اعوذ بالله رب
الفلق ؟ » وهل يجد فليكس فارس ذاته مناصا ، ان هو اعتمد على وصف الاستاذ نعيمة
هذا ، من ان يقول في وصف ماري انها « عانس شطاء » وانها « مسنة قبيحة » وانها
« محرومة من الجمال ومن فتنة الجنس » ؟

ليس لنا بالطبع ان نقول ان وصف الاستاذ نعيمة لماري كان كاذبا او كان صادقا -
خاصة وان الاوراق التي امامنا لا تحوي صورة لها ، فوتوغرافية او فنية . لكن أليس لنا
حق ان نتساءل كيف يبيح الاستاذ نعيمة لذاته ان يصف ماري هذا الوصف غير المقتضب ،
كما كانت في ١٩٠٤ ، وهو ذاته لم يرها الا في ١٩٣١ - وكانت قادمة من سفرة طويلة مضية
لتودع الوداع الاخير رجلا عرفته واحبته مدة ربع قرن ويزيد ، كما كانت قد اوشكت
على بلوغ عامها الستين ؟ ان عددا من الشعراء ، باللغات المختلفة وفي العصور المختلفة ،
عندما كانوا يحاولون بقصائدهم استمالة الحبيبات اليهم واقذاعهن بالتخلي عن التردد والتبغدد ،
كانوا يلجأون الى تذكيرهن تذكيرا منطقيا عمليا بما سيصرن اليه في المستقبل : انظرن الى
النساء المتقدمات في السن ، وامتلن ! مثل هؤلاء ستصرن بعد سنين ، وهؤلاء فيما
مضى كن يدرن رؤوس العشاق ويلهن الشعراء اروع مما تلهمهم الشياطين . او لم يكن
ممكنا ان تكون ابنة الثماني والخمسين سنة ، حتى وان انطبق عليها وصف الاستاذ نعيمة
آنثذ ، مختلفة شكلا عما كانت عليه وهي ابنة احدى وثلاثين ، يوم عرفها جبران ؟

ان فليكس فارس يسأل الاستاذ نعيمة سؤالا وجيها في محله : « هل كان متأكدا من ان
هذه الفتاة كانت في عين جبران تلك الفتاة العانس الشطاء العوجاء الشوهاة ؟ » في هذه
الاوراق ما يوحى بان ماري لم تكن ابدا هذا المسخ ، وانها بالاحرى وفي الواقع كانت
تروق جدا لجبران ، جماليا وجسديا وحسيا .

اننا نراه ذات يوم في خريف ١٩١٤ يحادثها عن الاجساد الجميلة ، ويقول لها ان جسدها
هي متناسب التقاطيع بشكل جميل ، وان النسب فيها بديعة جدا ، ويقول لها ان بنيانها
خارق لانها خارقة جدا من ناحية جسدية . ونراه في ١٩٢٣ يأخذ عليها امنيتها بان يكون
ردفاها اصغر حجما مما هما فعلا ، ويقول لها ان ردفاها لها بالحجم الصحيح تماما ، وان
عليها ان تكون شكورة عليها ، وانها متناسبة التركيب في جسدها كله بدون استثناء .
وينصحها بالا تلبس مشدا حولها ، مهما كان الزي الشائع . وفي العام التالي نراه يقول لها
انها ليست بدينة ، لكنها هي ممتلئة وليست بال نحيلة - ويضيف انه يجب ان يراها ممتلئة -
(في ١٩١١ كان يحادثها في رسالة منه لها عن صديقتها شارلوت ، واراد ان يتمدحها لها ،
فذكر لها انها « مدهشة ، يا عزيزتي ماري : فهي كبيرة الحجم وعريضة ») . ويؤكد لها
في الختام ان المرأة في سن الخمسين قد تكون اجمل ، من ناحية جسدية ، من الفتاة

الشابة . ويقول لها في ١٩١٣ انه يعتقد انها حسية وجسدية وان حاسة اللمس مرهفة جدا فيها . (وسنقرأ اكثر عن هذا في المقاطع عن علاقة الحب بينها) .

لقد اعطينني قلبا جديدا هذه الليلة

القصة التي يرويها الاستاذ نعيمة عن تفكير جبران بالزواج من ماري ، وعن الباعث الذي جعله يتقدم لطلب يدها ، وعن ردها له بسؤالها القصير : « لكن انظيف انت؟ » ، وانتهاء القصة هناك ، معروفة ومرددة في اكثر من مكان . وقد اوجز الدكتور حاوي في مؤلفه النقدي القصص المختلفة التي ذكرها المتحدثون المتعددون عن جبران - قال : « بعد عودة جبران (من باريس) مباشرة ، اقترح على الآنسة ماري هاسكل ان تمشي معه الى حيث تدعوها الحياة ؛ ويعتقد الاستاذ نعيمة ان الدافع على هذا كان رغبته في الضمان المالي لا الحب الصحيح . اما السيدة يونغ فتزعم عكس هذا ، وتقول ان جبران لم يعرض الزواج على الآنسة هاسكل الا عندما كان قد اضحى رجلا ثريا ، وقصده ان يترك لها جميع ممتلكاته عربون شكر لافضالها السابقة عليه . ويرى الاستاذ عبد المسيح حداد رأيا ثالثا ، مفاده ان العلاقة ما بين الآنسة هاسكل وجبران كانت مجرد العلاقة بين محسنة وفنان موهوب ، وهو بالتالي ينكر ان عرض الزواج قد حصل اطلاقا . وبما ان هؤلاء الثلاثة جميعا يتحدثون بثقة من استمد معلوماته من اعترافات مباشرة اما من الآنسة هاسكل او من جبران ، وبما ان تحليل النصوص المختلفة لا يساعدنا ، كما نرى ، على البت في حقيقة الامر ، فخير لنا ان نترك القصة هنا . »

لحسن الحظ ، تجيء هذه الاوراق الآن لتلقي الضوء على الجوانب المختلفة لهذه الحادثة ذات الامة الكبرى في حياة جبران وماري وعلاقتها معا .

يرد فيها ذكر موضوع الزواج منذ صفحاتها الاولى ، بعيد عودة جبران من باريس في خريف ١٩١٠ . فبعد سبعة اسابيع من عودته ، في ١٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٠ ، يذهب جبران وماري الى احد المتاحف ، ثم يقضي العشية عندها - تقول : « قال لي انه يحبني وانه سيتزوجني اذا امكنه . لكنني قلت له ان عمري يجعل ذلك غير موضوع بحث ... وقلت اني اود جدا ان احتفظ بالصدقة الدائمة بيننا ، واني اخشى ان نضحّي بصدقة جيدة من اجل علاقة حب سقيمة . حدث هذا بعد ان اوضح خليل ما الذي كان يقصده . » وهنا تأتي عبارة محيرة عندما نقرأها اول مرة : تقول ماري : « في عصر اليوم التالي صرف خليل بعض الوقت هنا ، وقلت له نعم . » ثم تأتي النبذة اللاحقة لها رأسا ، فاذا الموضوع قد تبدل تماما .

غير ان القصة لا تنتهي على هذه الشاكلة . فالظاهر ان جبران لم يتوقف عن السعي لاقتناعها . فزراها تلجأ الى طريقة مبتكرة : تجمع كل ما تيسر لها جمعه من صور قديمة

لها ، « وبعضها مرعب مخيف » ، وتعرضها على جبران « كما ابعث فيه نفورا مني » .
لكن الخطة لا تنجح ، فجبران يلتذ برؤية هذه الصور ، ولا تفعل فيه المفعول الذي
ارادته هي .

في الشهر التالي يسألها ان كانت تؤمن بالله ، وحينما تجيب بنعم ، يقول لها : اذا فلنضع
ايماننا فيه ، ولنثق ثقة مطمئنة بان كل شيء سيكون حسنا كما يجب ان يكون . اذا قلت
لي : انا اعتقد يا خليل انه ليس من الحكمة ان نتزوج - فاني ساقبل ما تقولين قبولا مطلقا ،
واصدقه .

ثم يعقدان حديثا آخر في الشهر التالي ، في شباط (فبراير) ١٩١١ ، ويعترضنا فيه مقطع
مهم ، مفاده ان الحديث واجوبة جبران على تساؤلاتها « اوضحت تدريجيا وببساطة وهدوء
الاحساس بالامتلاء في حياتي الحاضرة وضحالة الحياة معه ، والاحساس بالضعف الجسدي
ووقوفه عائقا في الحياة الزوجية . قد يتقوى في المستقبل - غير ان نشأته كانت وكأنه
زهرة صغيرة غضة ... ان هاتين الساعتين قد كشفنا النقاب لي عن امور كثيرة !»

منذ الشهر الاخير في ١٩١٠ كان اقتراح جبران يشغل فكر ماري . ويبدو انها رغم
اعتذارها للوهلة الاولى ، لم يأت جوابها الراض الا تدريجيا ونتيجة تفكير طويل ومداولة
ذاتية مضنية . في ١٤ نيسان (ابريل) ١٩١١ تصل الى القرار : « وهكذا فاني وصلت
الى قرار ، بان اتبع ما ظهر لي بانه اصعب الله الاخيرة . فقد اقصيت عني اكيدا امكان
ان اصبح زوجته . ومع ان كل ساعة من ساعات يقظتي منذ ذلك الحين كانت مغموسة
بالدموع ، الا اني اعرف اني مصيبة في قراري ، وان الدموع تعني الفرح والالم للمستقبل .
ان عمري هو ببساطة الحاجز القائم ما بيننا وبين هفوة زواجنا . انه ليس عمري الذي
يشكل العائق - بل العائق هذا : ان بانتظار خليل حبا يختلف جدا عن الحب الذي
يحس به تجاهي - رؤيا حب - وهذا سيكون زواجه . ان اعماله الكبرى ستكون ثمرة
ذلك الحب ، وسعادته العظمى ، وحياته الجديدة الممتلئة . ولن تنقضي سنوات طويلة
قبل ان يحصل هذا . انا لست الا خطوة ، في الطريق الى المرأة التي سيحبها ذلك الحب .
ومع ان عيني الحساستين تبكيان ، الا اني افكر فيها بفرح - ولا اريد ان اتزوج خليل ،
لاني اعرف انها تنمو الآن له في مكان ما ، وانه ينمو الآن لها .»

وجاء جبران يزورها في اليوم التالي ، وقالت له ان لديها ما ستقوله له في المساء :
« ان كل ما في يعترض على قولي له ، ما عدا الشيء الوحيد الذي يجعلني اقله . غير اني
اعرف ان هذا الشيء الوحيد هو المصيب » . ويسألها جبران ما القصة ، اهو امر سيء؟
« سيء بالنسبة لي ، جيد بالنسبة لك » . « واخذ يدي بيده وشد عليها ، وقلت
لها : توقفت عن التفكير باني سأكون في يوم من الايام زوجتك - وانا اريد ان اكون .»

انقلب ابيض اللون ، وسكن تماما ... »

وتروح تروي له « كل شيء » : كيف انها كل مرة كانت تفكر فيه ، منذ اوائل كانون الاول (ديسمبر) ، بانه لها ، او تفكر في نفسها بانها ستتزوج في يوم من الايام ، كانت تشعر شعورا قويا بانها مخطئة - كيف ان عمرها يقف حاجزا لا يمكن تحطيه ، وكيف انها « بالرغم مما في من شباب ومن قوة سابدأ قريبا في طريق النزول ، في حين انه سيبقى لوقت طويل في صعود وتسلق » - كيف انه « ما زال لم ينضج بعد ، وما زال نتاجه الافضل وحبه الافضل امامه ، وانها سيأتين معا ، غير اني لن استطيع ان اكون تلك المرأة - كيف انه اذا كان مرتبطا بي عندما يجيء هذا الحب الجديد فان كل ما هو نبيل وفروسي فيه سيصرخ ناقما عليّ » ، الى آخره . « وبكى . فاحضرت له منديلا . لكنه لم يقوَ على الكلام . في البداية ، عندما توقفت مرة عن الكلام ، قال بصوت كسير : تعرفين يا ماري اني لا استطيع ان اتفوه بشيء عندما اكون في هذه الحال . وسكت ولم ينبس بكلمة واحدة . وكان التعليق الوحيد الذي علق به هو انه يجنبي . وعندما انتهى كل شيء فتحت ذراعي له - لكنه سرعان ما ضمنني بذراعيه ، والقلب الذي لم يكن ليتعزى اذ ذاك ليس قلبا من لحم ودم » (هذه النقطة التسع في الاصل) . « وحينما اصبح الوقت قد تأخر ، وضعت راحة يده اليمنى على شفتي - وعندئذ انهمرت الدموع حقا ، غير انها في الواقع قربتني اكثر اليه . وقبلت تلك اليد البديعة كما كنت اتشوق منذ وقت طويل ان اقبلها ، لكنني لم اكن قد فعلت قبل الآن ، لان مجرد لمسها كان يثيره لحد كبير . واستجابت لي كقلب ... وحينما اوصلته للباب بكيت قليلا مرة اخرى ، بينما مسح عينيّ ، وهو لا يقول الا : ماري ، ماري ، ماري . وعندما خرج قال كأحسن ما يستطيع ان يقول : لقد اعطيتني قلبا جديدا هذه الليلة . »

وتستطرد ماري : « وبعد ان اويت الى الفراش ودموعي تنسكب شعرت فجأة كأن سلاما وضياء عظيمين قد حلا ، وانني واياه فيها ، فصحت : شكرا ، يا الهي ، شكرا ؛ وكررت ذلك مرة بعد مرة . وشعرت بسعادة عظيمة تفوق الوصف . انا ادرك اني قد تنازلت عنه - لكن ذلك لم يفرق بيننا - بل بالاحرى لقد قرب بيننا اكثر من قبل بكثير . » وهنا تأتي عبارة ذات اهمية ، يبدو انها اضافتها فيما بعد : « انه لم يرد قط الزواج بي ، وقد عرفت ذلك منه عن طريق صمته . وانها في الواقع خطوته الاولى التي اجبت عليها . غير انه يعطي بوفرة تجعلني لا أجرحُ لانه لم يرد الزواج . »

وفي اوائل نيسان (ابريل) يعود الى « الهجوم » ، وتعود الى « الدفاع » . قال لها وهما في المكتبة في يوم احد ، ان ما كان يخطط له آنئذ وما كان يتطلع الى تحقيقه انما هو الزواج : « حالما اكون قد قهرت نتاجي - وقهرت جانبا صغيرا من العالم ، وهذا

يحتاج شيئاً من الوقت ؛ لكننا ننتظر ، يا ماري ، « تقول ماري مستغربة : « ويوم الجمعة كان قد قال ما قاله قبل اشهر ، من انه قد لا يتزوج قط ! » وتحاول تفسير هذا التطور ما بين الجمعة والاحد : « لقد عاش ، بشكل من الاشكال ، مرحلة رئيسية في حياته خلال تلك الفترة - وتماشت علاقتنا مع نتاجه بشكل من الاشكال - وبشكل من الاشكال اصبحت حياتنا معا ، لا بالروح فقط بل ايضا في دار واحدة وفي بيت واحد ، جزءا جوهريا في تفكيره ومخططاته . وقلت له ما كنت قد قلته من قبل ، من اني اكبر سنا من ان اتزوج به - واعطيته مفهومي للتبدل الذي سيحصل حينما يتقدم هو في العمر ، اذ سأأخذ بالمثل الى نساء لا يكن اكبر منه عمرا ، الى آخر ما هنالك ... منذ ذلك الوقت - مع انه لم يقدم جوابا على اعتراضى فيما يختص بسنى - واكتفى بان ضحكك عندما قلت بانى قد درست القائمة : منذ اوديب الذي تزوج بامه ، الى محمد الذي تزوج بخديجة التي تكبره سنا ، الى براوننج الذي تزوج باليزابيث باريت - وانى لم اتزحج عن شعورى بانه في حالنا نحن عمري عقبه لا تدلل - شعرت خلال اجتماعنا التالي بطوله - يوم الاثنين - ان تفكيره قد تبدل فعلا ، من صديق محب الى صديق زوج - والان ... ما زلت اشعر بذات الشعور - كما ان ما يخططه الآن انما يخططه لكلينا معا ... »

وتعترف ماري : « أن اقول انى لا اتوق توقا لا يمكن التعبير عنه للزواج ، لأن اقول كذبا - غير ان العوائق جلية واضحة بحيث لا اريد ان يحصل هذا الزواج ... »

المررة التالية التي يرد فيها ذكر الزواج بينها ، هي في يومياتها لاواخر عام ١٩١٣ . تتحدث فيها عن لقاء معه ، وحديث واياه من القلب الى القلب - « واعترفت بالرغبة التي تنتابني بتكرار لان اتزوج منه - وسعادة ذاتي الكبرى لانى لم اتزوج منه - والصراع الذي ما ازال اعانيه من حين لحين قبل ان تعود ذاتي الكبرى فتتولى زمام الامر . وتعود اليه ، تلميحا ، في نبذة لربيع العام ١٩١٥ ، عندما تزوره في نيويورك ، بعد ان تكون قد زارت ميشلين التي كانت قد تزوجت الآن ، وتقول انها لم تتمكن من التكلم معه وانها كانت على وشك البكاء - « ولم اود خليل ان يظن انى حزينة لاننا غير متزوجين - او انى اود ان اعيش معه - لانى لا اود ذلك - لانه هو لا يود ذلك ... »

ويظل الزواج ، « امتع جميع المواضيع » كما يسميه ، موضوعا للبحث النظري بينهما ، كما كان دائما . تسأل في رسالة (١٩١٥) عما قصده بقوله لها ان الزواج لا يزيد في الحياة ، وتذكره بانه يعطي المرء سنة او سنتين من السحر والنشوة - وهذا شيء لا يمكن القول ان العزوبية تعطيه . فيرد في رسالة اليها بانه ليست في تاريخ العالم الا زواجات حقيقية قليلة جدا ، وكل العلاقات الاخرى علاقات غير خلاقة - وانجاب الاطفال لا يعنى انجاب الحياة . ويرى (١٩١٥) ان الزواج في غالب الاحيان فاشل ، ويتساءل : « لماذا تكون

النسوة العازبات اكثر امتاعا من النسوة المتزوجات ؟ لماذا ، عندما ترين امرأة تتأجج بالحياة والنمو وهي في الخامسة والعشرين من عمرها ، وتزوج من رجل مليء بالحياة والمتعة ايضا - عندما تلتقينها بعد خمس سنين تجدونها ذابلة بليدة - لا من ناحية جسدية ، بل ككيان ، كحياة ؟ لماذا تكون اقل ، كحياة ، رغم انها قد انجبت اطفالا ؟»

غير ان للزواج بعض منافع . كان يرافقها مرة (١٩١٣) للغداء ، وشاهدا سيول العمال خارجة من اماكن عملها . قال لها : « هذه المواكب تبعث في الحزن - لانها مواكب عبودية . الزواج هو الحل لها . عندما تحل مشكلة الزواج تحل هذه المشكلة ايضا . وثبتت تفسيره : » ان حل الزواج يكمن في حل مشكلة الحبلى الاختياري - التحكم في الحبلى . ان الاثرياء اثرياء لان بوسعهم التحكم في العمل مقابل دفع اجور زهيدة . فاذا تحكمت النسوة العاملات بالحبلى ، فانهن سينجبن عددا اقل من الاطفال ، وسيكون لزاما على المستخدمين ان يدفعوا اجورا اعلى ، ولن يظل المستخدمون عبيدا . ويعود الى حديث مماثل بعد عام من ذلك . يقول لها ان الاثرياء قد حلوا مشكلة واحدة ، مشكلة الولادة والانجاب . فلولم يكن الفقراء حقى حلوا هم ايضا هذه المشكلة ، ولاسهموا في حل المشاكل الاخرى في الحياة . لكن منطق ماري غير منطق . قالت ترد عليه : « لكن الاثرياء يصرفون مبالغ طائلة على منع الحبلى والولادة . . . وطريقة حياتهم تقضي هي بذاتها ، كما يقال ، الى اللاخصب . انهم يتجنبون الانجاب ، لكنهم لا يتجنبون الجماع . اما الفقراء ، فلكي يتجنبوا الانجاب عليهم ايضا ان يتجنبوا الجماع . وسيرد عليك الفقير قائلا : ان المسرات المتاحة لي قليلة ، أفأتحلى عن هذه ايضا ؟ » لكن جبران يصر على رأيه : « . . . لو كنت انا فقيرا ، ولم اكن استطيع ان اضاجع زوجتي الا وسينتج عن الجماع حبلى ، لتوقفت عن مضاجعتها ، وهذا كل ما في الامر . ولو فعل الفقراء مثل هذا ، لتوصلوا الى الحل . . . ان الرأسماليين والحكام يريدون ، عن وعي او عن غير وعي ، ان تزداد الولادات والانجابات ، لانهم يريدون مزيدا من العمال الذين يدفعون لهم اجورا رخيصة . »

الجنس في كل شيء : في الروح كما في الجسد

لا ، لن يتم بينها زواج . لكن هذا القرار ، الذي لم يكن الوصول اليه سهلا ، لم يحل مشكلة اخرى متصلة به ، بل هو زادها حدة والحاحا - مشكلة العلاقة الجنسية ما بينها . ماري في يوميات ١٩١١ : « في ازدياد سعير الحب ، وعدم توقعنا ان نتزوج ، تكمن صعوبة خيل لي انه من الافضل ان اجابها معه في الحال . قال : انت صافية جدا ومقدسة جدا ، وليس من الافضل ان تكون فينا رغبة وان نبدل هذه الرغبة ونرفعها الى شيء اسمى - من ان لا تكون فينا الرغبة اطلاقا ؟ اما انت فكوني كما انت على الدوام ، كما كنت تماما ، ولا تعبأ بي قط . واذا سمعتني اريد - فلا تصغي الي » .

واضح من الاوراق ان اية علاقة جسدية حميمة بين جبران وماري كانت علاقة محدودة جزئية لم تصل ذروتها الطبيعية قط ، وان الطرف منهما الذي كان مسؤولا عن ابقائها محدودة جزئية وعن صدها عن الوصول الى حيث كان مقدرها لها ان تصل انما كان هو جبران لا ماري. غير ان ماري قنوعة مكتفية: اذا لم يحصل بينهما الاتصال الجسدي الذي كانت تود ان يحصل ، فهي راضية بمقدماته مقبضة بها . يوميات ١٩١٣ : « الساعتان الاخيرتان في ٦ نيسان (ابريل) اضافتا ضوءا جديدا الى الاضواء التي ارى بها . ان خليل يأخذني قريبا جدا اليه : وبدون ان يتم جماع بيننا ، فانه يعطيني البهجة ، بهجة من يُشتهى ويعب ويداعب » .

في صيف العام ذاته تقول لجبران انها قانعة بما يريد هو : « اذا اختفى العنصر الجنسي من حياتنا ، رضيت ذلك ببساطة ولم اكبر الامر ؛ واذا ازداد ، رضيت ذلك ببساطة ولم اكبر الامر ... وقبلني ... برفق ليس له وجود حتى في الاحلام ، كما قد يقبل الله طفلا بين ذراعيه » .

من الاسلحة الرئيسية التي كان جبران يسلطها على ماري كلما شعر بان رغبتها قد جمحت وانها تحاول ان تقنعه بالتنفيذ ، تخويفها من الحبل . وتقبل هي تحليله للوضع ، ونصحه بالا يتم بينها الجماع خشية ان يؤدي الى حملها . ويستعرضان الوضع معا ذات يوم في اوائل ١٩١٤ . تقول : « تحدثنا عن المعلومات التي قد وصلت اليها بخصوص موانع الحبل - ذلك لاننا كنا قد تحدثنا فيما مضى عن الجماع ولم نكن نعرف ما تمكن معرفته عن الوقاية منه . ان المعلومات المتوفرة حتى الآن تؤيد قرارنا بالامتناع عنه . فان الطب لا يعرف حتى الوقت الحاضر وقاية امينة اكيدة - وما دام الاجهاض غير شرعي ، وما دام اكتشاف المجتمع ان امرأة ما قد جامع رجل دون ان تكون متزوجة منه يؤدي الى نبذها منه ، فان الثمن باهظ جدا وليس لنا ان نتحمله . يقول خليل : لو كان هذا كل ما بوسعنا ان يكون لنا ، او الشيء الرئيسي فيه ، لاختلف الامر . اما وعندنا الشيء الكثير معا ، اشياء كثيرة متشابهة ، واتحادنا هذا قد نأبدون جماع ، واثبت انه غير متوقف على الجماع - فليست لنا حاجة لان نفكر بدفع مثل هذا الثمن لشيء ثانوي ، قد يكون مهما ولكنه ليس اكثر من شيء ثانوي » . « وقال لي بعد الظهر وهو يخلق ذقنه : انك تهيجيني جسديا - وما زلت تفعلين منذ وقت طويل . حينما كنت اجلس على مقعدك امام الموقد غالبا ما كانت الرغبة الماعظما جدا » . وفي مناسبة اخرى ، في آخر العام ذاته ، يشده على فظائع نتيجة الجماع : « فكري في كيف يكون الوضع لو ان شيئا ما حدث لك - لك انت اكثر منه لي انا . فكري في اي طبيب ستهبين اليه ؛ قد لا يتفوه بالاهانات ، لكنه يفكره سوف يلصق الاهانة بك . وقد تحسرين صحتك الى آخر حياتك - وانت الآن

بصحة ممتازة ، وقوية جدا ... ان حادثا من هذا النوع سيقضي على الكثير مما بيننا . اقول لك بحق ، اني سأترك هذه البلاد ولن اعود اليها مطلقا .

وقالت له ذات مرة (١٩١٣) ، في معرض حديث مثل هذا عن الخوف من الحمل كعائق رئيسي في وجه تحقيق رغبتها الجنسية ، انها تتمنى لو انها امرأة متروجة ، او ممثلة ، فتكون بذات خبرة في الجماع الجنسي وبامان من النتائج . لكن ضميرها المرفه سرعان ما يوجئها على امنيتها هذه وعلى التعبير عنها له . ففي الصباح التالي تدرك انها كانت غير صادقة : فهي تخشى انه قد يُفهم مما قالته ان جبران ناظم على عدم حدوث الجماع بينهما او انه لا يتقبل الامر ببساطة - في حين « انها مشيئة هو الا يحصل جماع بيننا » . ويقول لها (١٩١٤) انه يجدها مليئة بالحياة والحيوية والحب ، وان جسدها ليس فيه ما هو غير مؤثر ، وانها قوية البنية وتتمتع بصحة سليمة - وان النساء لسن جميعا كذلك : من اجل هذا فانه اصعب عليها ان تضمن السلامة من نتائج الجماع مما هي الحال على غيرها من النساء . ويردف : « وانا ايضا ، بالرغم من ضعفي الجسماني ، فيّ دفء وفير من الناحية الجنسية وليس فيّ ما هو غير عابىء او مهمم ؛ واعتقد ان فيّ ولا شك شيئا حيويا جدا ايضا - لاني اعتقد ان جزءا كبيرا من قوتي الجنسية يتحول وينصب في نتاجي » .

بعد ذلك باسهر ، في نيسان (ابريل) ، تعود ماري الى الموضوع ذاته . « في احيان عديدة كنا نتألم الما شديدا من التشوق الى الجنس والامتناع عنه . وفي اجتماعنا الاخير كان العذاب اليماني الى حد جعلنا ندرک ، بدون كلام ، ان علينا ان نحرر انفسنا من هذا التوتر . تبين لي من رسومه ... انه كان يفكر في الامر ويجد حلا له عن طريقها . وانا ايضا كنت افكر . فكنت قد عرفت ، عن طريق الصدفة ، عن موانع اكيدة تعوق الحمل . لكنني لم احضرها معي اليوم . ذهبت اليه لا لقصده الا لان اكون معه بصورة كاملة بقدر المستطاع . ان الله اشد من المي ، وكيانه قد تحطم بسبب ذلك اكثر من كياني ... عندما استمع اليه بايمان ، فان ما اسمعه انما هو دائما من الله . وهكذا فاني ذهبت اليوم اليه بعقل منفتح ، وكم كان كل شيء سهلا ! ... لمس واحدا الآخر بحرية - وغالبا ما قبلني او قبلته - ولم تكن قبلاتنا قط اكثر مما كانت عليه اليوم حلاوة ، ولم يكن قلبانا اكثر اقترابا .. عرفنا السكينة والسلوى والانتعاش . ولم يكن صعبا ان نترك باب العذاب مغلقا . وانفتح امامنا ، كما لم يحدث قط من قبل ، جماع خفي . ولم يبدُ ان نقص الوصال الجسدي وانعدامه نقص ، ولم يفرض ذاته علينا . وخطر ببالي خاطر : كم سيكون الجماع الآن احلى بكثير ، لو استطعنا ان نحققه ، حتى مما كان يظهر قبلا انه حلو - وخيل لي ان الخاطر ذاته جال ببالي خليل . لكنه جاء برفق ، ولم يرافقه الم . مرة خلال اليوم احسست ان خطرا يتهدده - لكنني شعرت به يتحجى . ولم اشعر قط بانى محبوبة كما شعرت اليوم » .

وتزوره من جديد في حزيران (يونيو) ، « زيارة خطيرة الشأن » . شعرت خلالها ، كما تقول ، بحضور الرغبة اللاواعية في جبران ، وكانت شيئا جميلا جدا . لكن ذلك لم يعن لها ان عليها ان يستثارا . غير ان جبران استثير في المساء - « واعرف ان الاستثارة - ولا جماع - حملت له الما حادا وعذابا صحيحا . قال : هذا سيغني مرض شهر . وقال ايضا : هذا غلط ، يا ماري » . في تلك الزيارة قال جبران ان في كل انسان ثلاثة مراكز ، هي الرأس والقلب والجنس ، وان هذا او ذاك منها يتحكم في كل انسان . اما في حالي انا ، فان الرأس والقلب تحكما فيّ حتى سنوات قليلة خلت - بعد ذلك تحكم الجنس - وعندما اقول الجنس اقصد الجنس معك » . ثم عاد الرأس والقلب الى الحكم - « واريدك ان تساعديني في ذلك » . تضيف ماري : « فقلت له : يا سيدي العزيز الهرم ، يبدو جليا انه ينبغي علينا الاتضاجع . اما عدا هذا فكيف لنا ان نقرر ؟ علينا ان نترك الغد للغد » . بعد ذلك قال لها : « طبعا انا احبك ، وطبعا انا اشتبهك . اني اشتبهك اكثر مما تشتهيني انت . في اللحظة التي تدخلين فيها احس بك في كل ركن من اركان الغرفة . واحبك كما لا يحب رجل امرأة . غير ان الاشياء الجسدية تعمر يوما ، ثم تزول . وانا لا اريد شيئا عظيما من الاشياء التي بيننا ان تزول . واختبارنا الجسدي اختبار محدود جدا . اننا لا نعرف ماذا سيغني ، ولا نعرف ماذا قد يأخذ معه حين يزول . ان علاقتنا قوية جدا - لكننا لا نعرف اذا كانت تستطيع ان تتحمل اي عبء قد نضعه عليها ... اني بحاجة الى مساعدتك . اني اضع ذاتي في يديك . لم اقل مثل هذه الكلمات قط لاي مخلوق آخر - لم يحدث لي قط مثل هذا الاختبار مع اي شخص آخر ... عندما اجتاز مثل هذا الاختبار ، لا يكون فيّ نفع في اليوم التالي - ثم يمر يوم آخر ، ويوم من بعده ، قبل ان اعود الى نفسي والى حياتي الهادئة » . ثم قال : « ان العلاقات تكون نحيفة وطويلة او تكون ثخينة وقصيرة . فايها تختارين ؟ قلت : ثخينة وطويلة . فضحك وقال : وانا ايضا كنت لاختار ذلك ، لو كان هذا ممكنا - لكن هذا في الواقع يبدو مستحيلا . انا اختارها نحيفة وطويلة . فانا اريد علاقتنا ان تدوم » . ثم قالت له ماري ان كل شيء فيها يحبه ، وانها تعتقد ان اطراف شعرها تحبه ورؤوس اظافرها تحبه . ولما قال لها انه سيعمل على لوحة وسيسمح لها بمراقبته اخذت ترقص فرحا وتؤرجحه وقد حملته بين ذراعيها ، وتقول له : آه ، يا عملاقي العزيز . « فضحك ، واعاد اللفظة ، كما يفعل كلما اسميته اسم تحبيب جديدا . قال : انك تقذفين بعملائك هنا وهناك . قلت : انما لانه يسمح لي بذلك » .

وقبيل عيد الميلاد من العام ذاته تزوره ايضا في نيويورك ، ويدور الحديث حول الشذوذ الجنسي عند المرأة . ويقول انه لا ينفر منه كما يفعل الكثيرون ، غير انه لا يفهمه . وفسره ماري له : ان اكثر النساء يملن للنساء انما عندما يكنّ ناضجات جنسيا لكنهن لا

يلتقن الرجل الكفف المناسب بيد انهن يجدن امرأة يمكن الانسجام واياها . « وسألته ان كان يود ان يستمع الى اختباري الخاص في هذا المجال مع ل . قال نعم . فاخبرته . ذلك الاختبار مع ل . كان اختبارا في غاية الجمال والافادة بالنسبة اليّ - لكنني شعرت منذ البداية حتى النهاية انه ليس اختبارا من النوع النهائي - ولم احصل قط على الراحة والسكينة من جراء مداعبتها لي مداعبة جنسية - مع انها هي حظيت بتلك الراحة والسكينة - كل ما حظيت انا به كان التهييج - في حين ان مجرد وجودي مع خليل ، حتى وان لم تتخلله ادنى مداعبة ، يمنحني الراحة والسكينة المطلقة - ولم يحدث قط اني لم اتم نوما مريحا بعد رجوعي من عنده ، مع اننا لم نعرف الجماع ابدا . »

وفي اليوم التالي كانا يتناولان الطعام ، وسألته اذا كانت تعجبه الارطال العشرة التي اضافتها الى وزنها منذ ان نصحتها هو بان تفعل ذلك قبل ثلاثة شهور . قال انه لم يلاحظها . وعندما عادا الى الستوديو « اطلمته على بطة رجلي وشدت تنورتني الى القسم الاعلى من ساقي كي يتمكن من الرؤية . وقلت له : أنجيل هذا ؟ أعتقد ان عليه ان يكون اضخم ؟ قال خليل : غريب ! لم ارَ ساكك قط - وكنت احكم عليها على اساس ذراعك ، كما يفعل المرء عادة . قلت له : واني مغطاة حسنا مثل هذا في كل جزء مني . وسألته ان كان بوده ان ينظر اليّ ويحكم لنفسه . اجاب : لو ان هذه الغرفة لم تكن باردة ، لكنت طلبت اليك ان تريني . فأدأنا الغرفة ، ونزعت عني ملابسني . وقال خليل : مذهل ! لست نحيلة ابدا . بل انت ممتلئة من هنا (عند الفخذين) فما تحت اكثر بكثير منك عند الكتفين . انك قوية جدا ، ومبينة بقوة ، ومتناسبة تناسباجيلا . لكنك حتما لا توحين بان فيك ما فيك من لحم . لا ، لست تحتاجين الى اضافة اي وزن - فانت بالتام ما يجب ان تكوني . - غير انه قال ان رؤيته لي عارية يستثيره . قال : ان النساء اللواتي من نوعك يستثنون الرجال . ان الرجال يخافون ان يروك . ذلك انه لا يمكنهم الا ان يستشاروا . - وهكذا فاني عدت فارديت ملابسني ، لاننا لا نزيد تعقيد الامور جنسيا . لكن خليل وضع ذراعيه حول عنقي وقبلني في صدري ونحن واقفان . وظللت الليل بطوله احس بذلك التماس ، ولمدة ثلاثة ايام من بعده . لقد كانت روح خليل وعندما رأيت خليل مستثارا - عندما قال ذلك - خشيت انه سيعاني آلاما كالتي رأيتها يعانيتها قبلا . قال : لا ، ستعبر ، لقد بدأت تعبر . وسارت الامور على ما يرام ... لم اكن قد ادركت فيما مضى ان خليل لم يكن قد رأىني قط . كنت اخلع ملابسني لابدائها في غرفته - وكنت انا قد رأيتها هو . لكنني سعيدة لانه قد رأىني الآن . ثم تقول : « ويخيل لي اني لو كنت في التسعين من عمري وكان هو في الثمانين ، فاني لكنت ما ازال احن الى التماس مع جسده - وليكن كيفما كان ، ساكنا وضعيفا وذاويا - لكنت لا ازال اتوق الى ان يكون

قريبا جدا اليّ - مع ان جسدي هو ايضا ذاوٍ وضعيف وساكن - مجرد انه جسده هو». وفي آخر ايام هذا العام الحاسم يكون في بوسطن . « واستلقى ومد ذراعه لاستلقي الى جانبه ورأسي على كتفه . وعرفت انه كان يفكر في الليلة قبل الماضية - واضطجعت صامتة ، وذراعي تحيط به من تحت معطفه . ولم يقطع الصمت الا ليسألني هل اشعر بالدفء . وعندما قلت : نعم ، فاني جالسة على موقد ، ضحك وقال : أنا موقدك - اسود ، ومدخن ، وذو انبوب طويل ؟ مع اني لست اعرف اين هو الانبوب الطويل ! ثم تقول : « لا شك ان خليل قرر ان يقيت جوعي للمسته . فكما يفعل الشبان عندما يضعون اذرعهم حول اعناق صديقاتهم ، كانت يده مستقرة باستمرار عليّ او تتحرك عليّ صعودا وهبوطا - وكان يقبلني من حين لحين - في رقبتي او في يدي او في عيني - ثم قبلني في فمي ، بشهوة . وتهيج ، وعراه الشحوب - فاستويت في جلستي ، وقلت : الا ترغب ان ترى الصور التي احضرتها لرأس المسيح لدافينشي ؟ قال : بلى ... »

كان عام ١٩١٤ اهم الاعوام بالنسبة الى ماري وجبران والعلاقة الجسدية بينهما . وهي العلاقة التي ستسير ، بعد ذلك العام ، في خط النزول لا الصعود . ولا شك ان ماري ادرت انها لن تنجح في « التحرر » من اللانجنس ، لان جبران عازم عزمها اكيدا على التمتع ، مهما كانت ذرائعها لاقتناعها بوجهة نظره . ولا شك ايضا ان جبران كان واثقا من انها ، مع الزمن والتكرار ، ستقبل بكل شيء يريده هو ويقرره - الى حد انه يعرف انه عندما يقول لها في ١٩١٥ ان كل مرحلة من مراحل الحياة فيها علاقتها الجنسية الخاصة بها وانواع الجماع والاطفال الخاصة بها ، و « ان هناك اطفالا غير اطفال الجسد . فانت وانا ، على سبيل المثال ، بيننا انواع مختلفة من الجماع ، طيلة الوقت » ، او عندما يقول لها (١٩٢٢) ان بينهما هما علاقات جنسية عديدة ، ولكن غير جسدية ، « فالجنس موجود في كل شيء : في الروح كما في الجسد » ، - يعرف انه حين يقول هذا للمرأة التي تحبه ، والتي تتحرق للنوع الرئيسي من انواع الجماع ، والتي عندما تمشي في الشارع فانها تسمع جميع النساء يصرخن في وجهها : الجنس ، الجنس ، فانها سترضى بما يقول وستصمت عن اي رد معارض محتج . وعندما يستعيضان فيما بعد عن العلاقات الجسدية بالحديث عنها ، فانه يعرف انه سيمنحها ، بذلك وحده ، سعادة ونشوة واكتفاء .

وتمر سنوات غير قليلة ، ويأتي عام ١٩٢٢ ، وتكون ماري قد شارفت على عامها الخمسين ، عندما تبدأ تفكر بالزواج من رجل في ولاية جورجيا كان زوجا لقريبة لها وترمل قبل وقت غير طويل . مرات عديدة ، في ١٩٢٢ وفي ١٩٢٣ ، تستشير جبران حول هذا الزواج . ويقرها عليه . انما يسألها ان كانت تفضل بعد زواجها ان يستهل رسائله لها بعبارة « عزيزتي ماري » عوضا عن « حبيبتي ماري » .

ويتم الزواج في ٧ ايار (مايو) ١٩٢٦ ، وتقابل جبران للمرة الاخيرة في ١٣ منه ، وتسكن في سافانا بيجورجيا ، وتصبح اوراق مذكراتها موجزة عابرة - الى ان نصل الى ورقة يوم الجمعة في ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٣١ ونقرأ فيها : « مات جبران الساعة ٥٠ ١٠٠ مساء - لكنني لم اعرف بذلك حتى وصلتني برقية ماري (اي مريانا) يوم الاحد » . ونراها ، في نبذة الاحد ، يوم استلامها البرقية ، في طريقها الى بوسطن لتشييع جبران ورؤية مريانا وتسوية الامور الناجمة عن وفاته .

أذيتني كما لم يؤذني انسان قط

اذا كانت سنة ١٩١٤ تسجل اعلى تقدم وصلته العلاقة الحبية بين جبران وماري ، فان سنة ١٩١٥ تسجل اعنف خصام ونفور قام بينهما . واذا كانت ماري لعبت الدور الايجابي والام في علاقة الحب ، فان جبران لعب الدور الايجابي والام في علاقة الخصام . لكن اول سوء تفاهم حصل بينهما كان سابقا لذلك التاريخ . فقد حصل اول ما حصل في ١٩١٣ ، بسبب الجانب المادي من علاقة ماري به . قالت له في معرض الحديث ان المال جعل العلاقة بينهما ممكنة - ثم ادركت انها اخطأت بحقه : فالواقع ان العلاقة هي التي جعلت المال ممكنا . وقررت ان توضح له ذلك في اليوم التالي ، وحينما قالته له ثار في وجهها ، وذكرها انها قد قالت الشيء ذاته ثلاث مرات من قبل ، مما يدل انها كانت تعتقد ان بوسعها شراء صداقته بالمال - مع انها حين اعطته اولا قالت ان المبلغ لا علاقة له بصلة شخصية بينهما . وقال لها انه مرارا عديدة كان يسأل نفسه ألم يرتكب خطأ حينما قبل ان يذهب الى باريس على نفقتها . وقال ان الاتفاق الذي عملاه في الربيع الفائت ، حول تسديد الدين عن طريق لوحاته ، جعله يظن ان الامور قد سويت - حتى كانت ليلة الامس ، والآن عادت اليه الحيرة والشكوك . « كل ما اريده ان تقولي لي لماذا في الواقع اعطيتني النقود - وعندها ساعرف ما هو موقعي . قولي لي ببساطة كي لا ارتكب خطأ . اكانت هدية؟ ان كان هذا هو الواقع فسأكيف ذاتي تبعا لذلك . اكان مقصودا بها ان تنشئ رباطا بيننا ؟ قولي لي ، وسأعرف كيف اتصرف ... لكنني لا استطيع البقاء في شك وحيرة . لقد كان هذا مبعث شيء من اصعب الاشياء في حياتي ... كل مرة كنت اقضي شهورا بكاملها اتألم الما فظيما من ذلك » . وتذكر له ماري انها اعطته المبلغ في ١٩٠٨ كهبة - لكن وهي تعرف انه سيعتبره هو قرضا . وقالت انها اعتبرته هبة لانها كانت تعتقد ان وقتا طويلا سيمر قبل ان يكون في وسعه ان يعيده اليها ، وانه عندما يتمكن من ذلك سيسمح لها بان تلغي الدين اذا شعرت انه ثقيل عليه . وذكرته بانها لم تحتفظ بسجل للمبالغ المقدمة له .

وتبادلا بعد ايام عبارات مرة ، ندمت بعدها عليها ، وكتبت في يومياتها انها تعرف الآن

ما يحس به من وحشة ومن الم اكثر مما كانت تعرف فيما مضى ، وان قسوتها نحوه لم تكن جلية لها في السابق . وتذكر انه قال لها : « لقد آذيتني كما لم يؤذني انسان آخر قط . ليس لاحد ما لك انت من قوة على ايدائي . لقد قلت لي اشياء مرة جدا لم يقلها لي احد ما قط . لقد جعلتني اتألم اكثر تقريبا مما جعلني اي شيء في حياتي... » وقال لها ايضا : « انا مثل طفل ، ولست مثل كلب . الكلب يعود اليك بعد ان تصديه مائة مرة ، كان شيئا لم يحدث . لكن الطفل لا يعود . »

غير ان المشاحنات ، واستعراض الماضي بمرارة ، تصبح اشد وتكرر اكثر في ١٩١٥ . يصر فان في ١٠ نيسان (ابريل) ثلاث ساعات كاملة يتحدثان عن علاقتهما ما بين ١٩١٠ و١٩١٣ ، ويعاتب واحدهما الآخر - او ، وهو الاصح ، يعاتب جبران ماري ، وتعاتب ماري كلا من جبران عتابا رقيقا ونفسها عتابا شديدا . ويروي لها جبران شكواه : عاد من باريس ، « وجئتك ، ووهبتك قلبي ، بكامله تماما - بكل بساطة ، بكل صراحة ، بكل اخلاص . كنت مجرد صبي ، يضع كل ما هو وكل ما له في يديك . وقابلتني بكل برود ، وبكل سخرية » . تقول : « وروى لي اشياء قلتها له - اذكرها الآن بعد ان اعادها عليّ - واشياء فعلتها - ورأيت ذاتي كما لم اكن قد رأيتها من قبل . اني لم اومن به - بدون ادنى مبرر - وثابرت على ذلك - وعاملت قلبه وكأنه قطعة من الطوب... » وقال لها : « ظللت اتساءل : لماذا ؟ لماذا ؟ ولم اعثر على جواب . كنت مهتمة بنتاجي - لكنني كنت احضر لك قلبي مع نتاجي طيلة الوقت . كنت اعمل في تلك الغرفة الصغيرة ، ثم اهرع اليك بما لديّ - سواء اكان ما زال رطبا ام كان قد جف - في الامستين كل اسبوع - وتعرفين اني كنت انتظر قدومها انتظارا في الامسيات الاخرى الباقية » . وتقول ماري : « وبينما كان يتكلم كنت اخاطب نفسي : وكنت تظنين انك انت المحبة اللا محبوبة يا ماري ! » . وتروح تلوم ذاتها على تقصيرها نحوه .

لقد عرف جبران ، منذ بداية هذه المناوشات اللفظية والتذكارات المريرة للماضي ، ليس فحسب ما في صدر ماري من حب ، بل ايضا ما في ضميرها من قابلية للندامة . عرف ان هذه المرأة البروتستانتية يثقلها الاحساس بالاثم . فلعب على هذا الوتر فيها ، ولم يترك مناسبة لم يذكرها فيها باجرامها نحوه في الماضي - واذ عرف مدى حبها ، فانه اقنعها بانه لولا تصرفاتها هي لكان حبها قد ائنع وكان قد اتخذ تاريخا مختلفا .

في اليوم التالي تسرع اليه مغمومة للاعتراف بالخطايا . قالت له : « انا ادرك الآن ان اصل هذا كله يعود اليّ انا . فبدلا من التشكيك في حبك كان عليّ ان ارى ان تقديمك حبك لي كان احلى شيء واروع شيء يمكن ان يقدمه كائن بشري لآخر . وعندما اكتشفنا لهفوة فيما يتعلق بالزواج ، كان عليّ ان ادرك ان الهفوة لم يكن يمكن ان تنشأ الا عن

الحب وانها هي نفسها كانت حبا ورفقا - بدلا من ان اشعر بالاساءة ، كما شعرت ، واقدر
الا اصدقك من جديد لثلاثي الي من جديد . واني ادرك الآن كم كنت قاسية
وغير محبة ، وكم كانت معرفتي عن الحب ضئيلة ، واني لم اكن او من . والحب بدون
الايمان ليس حبا .

وانتقلا الى موضوع آخر كانت تحيط به المرارة - موضوع « نظافته جنسيا » . تقول
ماري انها جعلته يدرك نهائيا انها كانت تعرف على الدوام انه نظيف جنسيا ، وذلك
على الرغم من كل ما قالته لها عنه ميشلين وشارلوت - وانها لو لم تكن تعرف ذلك لكنت
ابتعدت عنه ولما كانت على صلة وثيقة وحميمة به . فرد جبران قائلا انه ينحدر من جيل من
الاسلاف الغريبيين ، وانه متأنف من الناحية الجسدية وشديد الحياء والخفر ، وانه يحجم عن
مس كثير من الناس ، وان صدف ان مسهم سارع الى غسل يديه - وظل اياما بعدها
يخس بتلك اللمسة . « اني ببساطة لم يكن يمكنني ان احيا الحياة التي نسبتها الي
شارلوت وميشلين » .

ظل هذا الاحساس بالاثم يرهق صدرها وضميرها ، فكتبت له بعد اسبوع رسالة جاء
فيها : « خشيت اني قد اسأت الى ذلك الشيء الذي بيننا وجعلته الى الابد اقل مما كان
ممكننا ان يكون . ان هذا لم هو اقصى قصاص يمكن ان يوجه الي ، الى ابد الآبدين ... اني
آسفة على ما اتلفته ، وعلى كل الم سببته لك - وآسفة لان الاسف لا يستطيع ان يلغي
مفعول ما قد فعلت » .

وفي حزيران (يونيو) يفضب جبران عليها لتدمرها من رفضه ان يسافرا معا الى اي
مكان او ان يذهبا معا الى الجبال او ان يقوم معها باي نشاط عدا الزيارات . تقول معتذرة :
« كان حقا مني ان اقول هذا ، لاني افهم الآن انه لم يكن يمكنه ان يرضى بمثل هذا
الارتباط الدائم بي . وشعرت اني قد آذيته . وتحدثنا عن الموضوع في طريق العودة .
قال خليل : ان فيك يا ماري اربعة اشخاص مختلفين ، او خمسة - اشخاصا كبارا طيبين
احبهم واستمتع بهم - لكن هناك شخصا آخر يهب من حين لحين ، لا افهمه . لقد آذاني
على الدوام ، وما زال يؤذيني » . وراح يؤنبها على معاملتها له في ١٩١٠ و ١٩١١ ، وعلى
تفضيلها شارلوت عليه هو ، ويحملها تبعة عقمه الفني في تلك الفترة - « وذلك بسبب تعذيبك
لي طيلة الوقت . ولو انك خطوت خطوة اخرى للامام ، لقلت لك : اني اكرهك ! ولا
اريد ان ارى وجهك قط من جديد ما دمت حيا ! » ويتحدثان مرة اخرى عن الامراض
الزهريية : ويقول لها جبران ، بشيء من التأنيب ، انه ان احب امرأة ما فهل تظن هي
(ابي ماري) انه كان سيتأثر الى ادنى حد فيما يختص بالزواج منها ولتكن حالتها الصحية
ما تكن ؟ وتساله ماري : لكن الم يكن ليهم بان يعرف ان كانت مصابة بذلك المرض

ام لا ، كيميا يساعدها على نوال العلاج ؟ ويرد بالايجاب ، لكنه يستطرد : لماذا لم تسأله هو هذا السؤال قبل ان تجيبه بنعم ؟ ولماذا اجابته بنعم اذا كانت تحب شارلوت اكثر مما تحبه هو ؟

وبعد ايام ، في الشهر ذاته ، يجتمعان من جديد في نيويورك ، ويعودان لبحث الماضي والآلام التي عاناها نتيجة لصدودها في القديم . ويقول لها موبخا : « لم اعرف قط ما الذي فعلته لاجعلك هكذا - او كيف اعمل الشيء الذي يكون الشيء الصحيح ... كل ما استطعت ان افعل كان ان اقول لذاتي : ابتلع هذا ايضا . وابتلعت . لكنه كان مرا ... صار شعوري نحو كل الناس مرا ... لاني في داخلي كنت ارتعش من استهزائك او بروذك . وتعود (كما عرف انها ستعود) لتلاوة فعل الندامة : « اخبرته اني لبثت الاسبوع المنصرم كله افكر في هذا الامر : اني ادرك اني لم اتألم نصف ما عليّ ان اتألم ، وان الالم هو الشيء ، او احد الاشياء العظيمة ، الذي يجعله ما هو ، واني ادركت الآن اكثر من ابي وقت مضى انه تألم وكم تألم . فقال خليل : لو ان الالم يجعل الانسان عظيما ، يا ماري ، لكنك الآن بعظمة الجبل . قلت له : وانك لجبل . واخذت تؤكد له كم كان رائعا تجاهها على الدوام ، وانها هي التي كانت تسيء فهمه ، وانها الآن تدرك كل شيء ، ومنذ ١٩١٣ لم يعد يؤذيها سوى الامتناع عن الوصال الجسدي - وقد بطل هذا الآن يؤذيها . قال : « يبدو ان الجنس قدمات فيّ . اعتقد ان مراكز اخرى في تحتل الآن المقام الاعلى . قبل حوالي سنة حاولت ان اخفف من قوته فيّ - وقبل شهرين او ثلاثة بدا انه زال - لا اظن انه قدمات - فربما لم يمت شبابي بعد . قديعود . لكنني في الوقت الحاضر مليء باشياء اخرى » . وقبل ندامتها منها ، وقال لها ، وكأنه يمر بيده على جبينها ويمسح عنها ما اعترفت به من خطيئة : « بالطبع لقد عرفت يا ماري عن هذا الاسبوع وعمما تحملت فيه من الم . لا تظني انك تتألمين لوحديك . لقد عرفت على الدوام اننا نفعل الاشياء شراكة - واننا نفعل » .

لكنها لم تشعر انها كفرت كفاية . فسافرت الى ولاية واشنطن ، وكتبت له رسالة طويلة في وسط تموز (يوليو) قرعت فيها صدرها ما طاب لها ان تقرر : « اني اعرف الآن يا خليل اني قد اخطأت بحقك قدر ما كان بوسعي ان اخطيء ، لانك اخذتني الى ارقّ بؤرة في فؤادك - ومن هناك سددت لك كل لكمة وكل جرح ... اني لم اعترف بك ولم اقر بك - بك انت الحقيقي ، بالانسان خليل . مع انك بكاملك ، بذاتك ، جئت اليّ ، وجئت اليّ بدون حساب ، ولم تطلب الا ان تكون انت انت وان اكون انا انا ... ولهذا فما اسميته حبا وصدافة كان ينقصه ما هو في صميم الحب والصدافة ... ادرك اني آذيتك وشوهتك في الصميم : في صحتك ، وفي نتاجك ، وفي علاقتك بالآخرين - في ينبوع

الحياة ، في الصميم ذاته ... ان روحي عاملتك كأنك دوني — بل انها لم تنهض ، تكريما واحتراما لك ... لقد ائمت تجاهك ، اثما طويلا مستمرا ، يا خليل ... الخ الخ . ويجيبها جوابا نبيلًا متسامحًا — كيف لا ، وتفصله عنها ، وهو في نيويورك ، على الشاطئ الشرقي من الولايات المتحدة ، وهي في ولاية وشنطن ، على الشاطئ الغربي منها ، مسافة شاسعة؟ ويقول لها ان تلك السنوات الخمس قد انقضت وان بوسعهما الآن ان يبدأ فصلا جديدا من فصول علاقتهما ، وان تلك السنوات رغم ما كان فيها من ألم عظيم كانت سنوات خلاقة ، وانهما الآن ينعمان بروحين اكثر بساطة مما كانتا في الماضي . وينهي رسالته بغفران شامل : « بدون بركتك لن اتمكن من متابعة نتاجي — لانك قد حررت يدي » ، وان لم تستمري في تحريرهما بفرح ، فانها لن تستمرا في العمل » .

وقضت جانبا من الصيف بعيدة عنه ، تفكر في علاقتهما معا . وعادت لها جميع احداث الماضي بشكل جديد ، ورأت كم كانت مخطئة بحقه ، وكم كانت قاسية تجاهه . واستغرق هذا التفحص الذاتي شهرا كاملا — « واخيرا ادركت لماذا حصل ان ذلك الذي كان يمكن ان يكون مدهشا جدا وجميلا جدا كان صعبا جدا عليه : ان الحب امر بسيط — وانا لم اخبه ببساطة » . بعد حلول هذا الادراك عليها ، لبثت وحدها في عزلتها اسبوعين ونصف اسبوع اخرى لا تكتب ولا تقرأ وتكتفي بالتفكير . ثم تركت العزلة وعادت الى بوسطن لتخبر جبران بهذا . وجاء ، واخبرته — قال انه ليس لديه ما يقوله ، « لكنني لا انتظر منك صفعات اخرى على الرأس بعد الآن » .

لكن بعد ايام ثلاثة فقط عاد العتاب . وعرفت ماري مظهرا جديدا من مظاهر الالم الذي قاساه في الماضي من اجلها ، وسببا جديدا له . ذكرها بانها قالت له ذات مرة ان صغر حجمه عامل يجعل فئة من النساء الامريكيات لا تحس به ؛ وبانها انتقدت مرة عاداته على المائدة — مع ان « عاداته على المائدة » ، كمعاداته في كل شيء ، هي اجمل عادات عرفتها قط . وخف العتاب بعد ذلك ، وان لم يتوقف تماما . وبعد سبع سنين ، في الوقت (١٩٢٢) الذي بدأت تفكر فيه جديا بالزواج من ج . فلورنس مينيس ، كانت تزوره ذات يوم في نيويورك ، ودار الحديث ، الطويل جدا ، على وجهة نظره هو في علاقتهما كلها ، عاد فيه بالطبع الى السنوات الاولى ، السنوات التي جرحته فيها مرارا وتكرارا — كما قال لها مرارا وتكرارا . لكن هذا الحديث الاخير في السلسلة لم يكن مجرد العتاب بل كان حديث اعتراف وحب ايضا . حدثها كيف ان شيئا فيها اجتذبه اليها منذ رأها لأول مرة في ١٩٠٤ في الصلاة التي كان يعرض فيها رسومه ، وراح يستعرض ماجريات صلتها : دعوتها اياه الى المدرسة ، زيارته المتتالية ، تعريفها اياه الى شارلوت وميشلين ، العون المادي والفترة في باريس — « وعندما رجعت الى بوسطن كنت كما عرفتك دوما : روحا حلوة حنونة مدهشة . ثم

في اليوم ذاته الذي حادثك فيه عن الزواج ، بدأت تؤذيني ، وظللت تؤذيني . « ويقول انها كانت كأنها امرأتان مختلفتان ، واحدة تؤذيه والاخرى تسوي الامر وتلغي الاذية . ويسرد بعضا من الامثلة على اساءاتها له ، نقرأ فيها مثلا او مثلين لم نكن قد سمعنا عنهما في مشاحناتهما السابقة . فهو يروي لها ان شارلوت قالت له مرة في نيويورك ان ماري جاءت الى المدينة وبقيت فيها يومين او ثلاثة في شقتها ، وانها طلبت اليها الاتخب جبران عن وجودها هناك -- « والحقيقة اني شعرت عندها بان السفينة قد غاصت من تحتي » . وهو يذكرها بامسية كان فيها معها في بوسطن ، وقرع الجرس ، وعندما عرفت ان القادم هو اخوها وزوجته ترددت كثيرا قبل ان تفتح لهما الباب ، لانها لم ترغب ان يراه اخوها هناك ؛ وانها بعد ان فعلت ، لبثت محرجة . ثم يكرر امثلة اخرى اصبحت مألوفة لدينا ، مما جعله يتألم ويتبدل . لكنه يؤكد لها الآن ، بعد مرور السنين ، ان الاشياء الطفيفة فيه هي وحدها التي تبدلت ، اما الاشياء العميقة فظلت وتظل كما هي - « وساحبك الى الابد ، واعرف اني احببتك من قبل ان نلتقي فعلا بوقت طويل . عرفت هذا عندما رأيتك اول مرة . كان هذا قدرا . اننا معا مثل هذا » (وشبك يديه احدهما بالآخرى) « ولن يفصلنا شيء واحدنا عن الآخر . انك لا تستطيعين ان تبدي علاقتنا ، ولا انا استطيع ، ولا الله نفسه استطيع » . ويقول لها انه عرف نساء كثيرات ، سوريات و امريكيات وفرنسيات ، من احسن العائلات و متعاملات و ذكيات وحسنات - لكنه لم يجب سواها ، وكان يضجر منهن وسرعان ما يبتغي ان يتركهن ليعود الى عالمه هو الخاص - « اما انت وانا فعالمنا الخاص هو ... واقول هذا لك بوضوح ، واريديك ان تتذكريه على الدوام ، انت اعز شخص علي في العالم كله . وتلك القرابة ، تلك الوحدة في كياننا الروحي ، لن تتبدل حتى ولو تزوجت سبع مرات من سبعة رجال آخرين . ان امور الجنس امور مؤقتة ، دائما . ولو اننا اقمنا ما يسمونه بعلاقة جنسية ، لكانت هذه العلاقة قد فرقت بيننا قبل الآن ... والزواج ايضا كان ليفرقنا ... » ثم قال لها : « وهناك شيء آخر اريد ان اقوله لك . انك تتحدثين عن ذاتك وكأنك بعيدة عن الجمال . تعرفين طبعا ان وجهك بديع جدا وان فيه جمالا خاصا لا يوجد في سواك . الا تعرفين اني اجد فيك جمالا ؟ الا تعرفين اني استعمل وجهك مرة بعد مرة في رسومي - لا في شبه للاصل ، انما اصورك انت ؟ »

غير انه يجدر بنا ان نذكر هنا ان علاقتها ، وان عمرت فترة بالمشاحنات ، فانها كثيرا ما كانت ايضا علاقة مرححة فرحة . وماري تروي نواذر متعددة عن البهجة والمتعة في صلاتهما ، وتسأله (١٩٢٣) ان كان سيجعلها تضحك عندما يلتقيان في الفردوس - لانها لا تعتقد انهما التقيا مرة واحدة ، حتى حينما كانا حزينين ، لم يجعلها فيها تضحك وتضحك . وهو يكتب (١٩١٢) انها من حين لآخر يضحكان سوية كما لا يستطيع اي شخصين آخرين

ان يضحكا. وتحدث هي (١٩١٣) عن كيف كانت تركزه حتى يكاد يصرخ من الضحك، وكيف (١٩١١) كانا يتراخضان في الشارع (وتسبقه) . ويقول لها اكثر من مرة انه حينما يكون معها لا يضجر مطلقا ، في حين انه ليس هناك مخلوق بشري ، رجلا كان او امرأة ، يستطيع ان يصرف معه ساعتين او ثلاثا بدون ان يتمنى تركه لفترة من الزمن.

انا معك طفل في بيت امي

يشير الدكتور حاوي في دراسته الى ناحية مهمة في ادب جبران وفي حياته ، هي تعطشه الدائم الى عطف الام وحنانها ، والى حياة العائلة والبيت ، ويقتبس عددا من الاقتباسات التي تدل على ذلك في كتاباته ، ويقول ان حبه لحلا الظاهر التي كانت تكبره بعامين ، وعلاقاته فيما بعد بماري هاسكل وبنسوة متزوجات مثل ماري قهوجي وماري خوري ، هي ادلة ايضا على الشيء ذاته . هذا الشيء نلاحظه ايضا في هذه الاوراق .

فهو يتحدث ماري (١٩١٤) عن المرأة التي «اغوته» (والهلالان هذان تستعملها ماري) ، ويقول انها كانت ذات شخصية مغناطيسية ، وانها احبته فعلا حبا شديدا ، « وكان فيها الشيء الكثير مما في الام » . ويقول لها (١٩٢١) انها هي الوحيدة في العالم التي يحس معها بانه طفل ، بانه ابن . ويكتب لها في ١٩٢٢ : « لقد كنت دواما اتمتع باطياب مائدتك ، يا ماري ، وكنت دواما تملئين صحنى وكؤوسى . والآن ... لا اشعر بعد بانى ضيف محبوب ، بل بالاحرى بانى طفل في بيت امي » . وفي رسالة اليها في خريف ١٩٢٨ ، يكتب لها عن اشتداد وطأة البرد في نيويورك ، وعن حاجته الى الدفء - ويقول : « ان قلب ام هو وحده يمكن ان يعطينى هذا الدفء . وهناك مثل هذا القلب . فليبارك الهنا هذا القلب ، قلب الام » . ويقول لها (١٩٢٢) ان كلا منهما ام للآخر ، كما يقول في مناسبة اخرى في العام نفسه انه قد تبناها ، وانه يجب ان يكون اباها ويكون طفلها . ويسألها (١٩١٢) الا يحوم على الدوام من حولها كما يحوم الطائر من حول عشه ؟ ويكتب لها (١٩٢٣) مشبها نفسه واياها بالنهر والمحيط .

وتكتب له (١٩١٢) قائلة انها في زيارتها الاخيرة له شعرت ان فيه امرأة ، فيرد قائلا انها قالت له منذ اربع سنين انها شعرت ان فيه امرأة ، ويقول انه آئنذ لم يفهم ما الذي عنته ، وانه الآن انما يفهمه نصف فهم . ويضيف : « ان المتصوف ليقول ان المرأة في قرارة نفس الفنان هي مصدر قوته . واملى ان تكون المرأة التي فيّ امّا صغيرة » . وتسأل في العام نفسه هل يجب ان يكون امرأة ؟ ويحييها : « ولماذا ليس امرأة ورجلا معا ، اذا كان بمقدوري ان افكر واحس واحيا ؟ رجل او امرأة - لا فارق عندي » .

كبر سنها بالنسبة اليه لم يثر له اية مشكلة ، بل لعله كان عاملا مشجعاً . لكن التفاوت بينها في الحجم كان يزعجه . وقد رأينا ان احدى الصفحات التي ذكر لها فيما بعد انها

كالتها له هي انها قالت له ان بعض النساء الامريكيات سيملن عنه نظرا لصغر حجمه . وروى لها اكثر من مرة سبب قصر قامته وضعفه الجسدي ، على الرغم من انه ينحدر من اسرة وسلالة قوية وكبيرة البنية ، وسرد قصة عن سقوطه في صباه وكسر كتفه مما ادى الى اعتلاله والى توقف جسمه عن النمو ولو بوصة واحدة طيلة حياته . ونرى تأثير قصره عليه نفسيا باديا في بعض احلامه . فهو يكتب لها في ١٩١٤ عن حلم يراها فيه تراقص « رجلا طويل القامة » وهي تضحك ؛ ويقول لها في العام التالي انه منذ بضعة اشهر تأتبه الاحلام كل ليلة بلا انقطاع ، وانه يرى نفسه فيها كبيرا ضخما ، وانه يرفع احدى ساقيه ويشعر بانها جبل ، وينظر الى اصبعه فيراها بعيدة عنه جدا - ثم يستيقظ ، « وآه ، فاذا انا صغير جدا في فراشي » . (في الاوراق ذكر لاحلام عديدة ، من المتع ومن المفيد لناقد ذي اهتمامات تحليلية نفسية ان ينظر فيها - كما في كثير من المقاطع الاخرى من اقواله ورسائله وفي تصرفاته) .

كان في علاقته معها دائم الحذر والخوف « مما سيقوله الناس » . تدعوه (١٩١٢) بالحاح شديد الى البقاء عندها في بوسطن عند زيارته للمدينة ، وتعمده بالاخبار احدا عن وجوده هناك . لكنه لا يقبل ، ويقول لها ان هذا سيجعل الناس يتقولون الاقاول ، مما سيعود بالضرر على اسم المدرسة . وتحديثه (١٩١٣) عن رغبتها ، في حال موته ، بمرافقة جثمانه الى جبل لبنان ، بتخويل منه . يجيب : لكن تعرفين ما سيقول الناس . وترافقه ذات مساء الى منزله لتحضر اغراضا من عنده - « لكن ليس الى الطابق الاعلى ، لان الوقت بعد الثانية عشرة وفي البناية اشخاص ذوو افكار خبيثة » كما قال : فهم حتما لن يصدقوا انك جئت اعلاه لتأخذني غرضا ما . وهكذا فاني وقفت تحت عمود الكهرباء ، على الطرف الآخر من الشارع ، وقرأت صحيفة التلغراف وصحيفة العالم ، ريثما نزل حاملا الرزمة !

هل فعل انسان لانسان ما فعلته لي ؟

بقي ان نختتم هذا العرض ، الذي طال اكثر مما كان مقررا له ان يطول ، بذكر تقييم جبران ، في ما كتبه لماري وفي ما قاله لها ، لهذه العلاقة بينه وبينها . فقد كان واعيا على الدوام ، خلال السنوات الطويلة وفي فترة الوثام وفترة الحصام على السواء ، لما في تلك العلاقة من فريدة ولما لها من اهمية في حياته ونتاجه ونظرتة للاشياء . مرارا كان يعيد على سمعها انه لن يمكن ان تقوم علاقة كالعلاقة التي بينها ، وانها لن يمكن ان تقصم ابدا ، على عكس علاقتها باي رجل آخر وعلاقته باية امرأة اخرى (١٩٢١) ، وانه لم يكن في حياته قريبا الى اي مخلوق ، رجل او امرأة ، بعشر معشار ما كان قريبا لها هي (١٩١٧) . وماري هي الوحيدة ، يقول لها (١٩٢٢) ، التي عرفها في حياته كلها والتي يشعر معها

بانه حر فكريا وروحيا ، وبانه هو هو الى ابعد حد . قوة تفهّمها (يكتب لها في ١٩١٣) هي التي تجعلها « الشخص الحقيقي الوحيد الذي اعرفه » . وهي قوة خاصة لتفهم خاص : ذلك ان الذين يتفهموننا (يكتب لها في ١٩١٤) انما يستعبدون شيئا ما فينا . « لكن هذا لا ينطبق عليك انت . فتفهمك لي هو افعم حرية عرفتها بالسلام والسكينة » . ويكتب لها في رسالة اخرى في العام نفسه : « لقد حررت حياتي ، والحياة بدون الحرية موت هي » . وماري هي واهبة الحياة (يكتب لها في ١٩١٤) ، وهي شبيهة الروح الاعظم ، الذي يصادق الانسان لا ليشاركه حياته فحسب ، وانما ليزيد في حياته ويضيف اليها . ومعرفة لها هي اعظم شيء في ايامه ولياليه ، وتبدو احيانا انها معجزة خارج نطاق نظام الاشياء الطبيعي . وفي العام التالي يكتب لها ان لقاءاتها تجعله اشد وعيا لله ، وان في ذلك الوعي تكمن حرية القلب الحق . وبدونها الاشياء تكتنفها ظلال المساء ، لكن عندما يتحدثان عنها فانها تبدو كجبال تستحم في نور الشمس .

وفي ماري مزيج فريد : عقلها عقل رجل (١٩٢٣) ، وفي الوقت ذاته يلقي فيها كل ما يود ان يلقاه في المرأة (١٩٢٢) . فلا عجب ان يقول لها (١٩٢٣) ان « ثلاثة اشياء عملت لي اكثر مما عمله لي اي شيء آخر في حياتي : امي ، التي كانت مدهشة جدا وتركتني وشأني ؛ وانت ، التي آمنت بي وبتاجي ؛ وابي ، الذي حاربني واستغزني للقتال . ليس بمقدور احد ان يطلب اكثر من هذه الاشياء الثلاثة او ان يجد اعظم من هذه الاشياء الثلاثة » . قال جبران لماري في ١٩٢٢ : « ان العلاقة بينك وبينني هي اجمل شيء في حياتي ، واروع شيء . وليس في حياتي فحسب . انها اروع شيء عرفته طوال حياتي . انها شيء ابدى لا يزول » . وكانا يتحدثان ذات يوم في ربيع ١٩١٤ ، وقال لها : « اني اعتقد ان عددا هائلا من الناس ، الذين يمكن ان يتطوروا ويتقدموا ، انما يموتون فعلا لانهم لا يجدون شخصا مثلك يقدم لهم يد الخلاص . ليست المسألة مسألة المال الذي اعطيتني اياه ليس الا - لكنها مسألة الطريقة التي اعطيتني اياه بها - والحب الذي اعطيتني مع المال ، والايان ، والاهتمام - واليقين ان ثمة شخصا يعبا بي » . ويضيف : « اني اتساءل احيانا هل حدث في التاريخ كله ان فعل انسان لانسان آخر ما فعلته انت لي . انا لا اعرف عن احد ما » . وترد ماري بتواضع مميز : « لكن احدا لا يعرف عنك وعني ايضا . من المحتمل ان هذا حدث مرة بعد مرة ، وانه يحدث الآن ، لكنه لم يعرف آنئذ ، ولا يعرف الآن » . لكن من حسن حظنا ، فيما يتعلق بالعلاقة بين جبران خليل جبران وماري هاسكل ، انه صار بمقدورنا ان نعرف الآن .